مشكلات الفكر المعاصر
في ضوء الإسلام

تأليف

أنور الجندي

السنة الرابعة ـ العدد الحادى والخمسون

غرة جمادى الأولى ١٣٩٢هـ ـ يونية ١٩٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور مهدى علام ، عضو مجمع البحوث الاسلامية

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، صاحب الشريعة ، وهادى البشرية الى ما فيه خير الدين والدنيا •

وبعد فيسرني أن أستجيب لرغبة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ، الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية أن أقدم للقراء كتاب :

« مشكلات العصر فى ضوء الاسلام »

للأستاذ أنور الجندى

ولما كان الاسلام أعز ثروة فى أيدينا ، كان لزاما علينا أن نرعاها من الضياع ، وأن نصونها من عوامل الانحلال والهدم التى سلطها عليها أعداء حاقدون ، أو جهال مستهترون ، أو مخدوعون مستسلمون •

وعصرنا الحديث ملىء بالتيارات الفكرية ، والنزعات المذهبية ، التى تنتشر بين ناشئتنا ، ونحتاج الى نظرة فاحصة تميز الخبيث من الطيب • فالاسلام لا يعادى جديدا الا اذا كان ضلالا ، ولا يصد عن تطور الا اذا كان انحدارا •

وقد عرض المؤلف فى هذا الكتاب الى المفاهيم المتعددة التى بتكلم عنها دعاتها ، وحددها ، وأبان موقف الاسلام من كل منها ٠ فالاسلام دين الحرية ، ودين العمل ، ودين التطور والتقدم ودين البطولة ، ودين كل قيمة رفيعة أصيلة ، ولكن الاسلام لا ينخدع بكل ما يذكر باسم الحرية ، واسم العقل ، واسم التطور والتقدم، واسم البطوله ، بل لابد من تمييز الحق من الباطل ، والأصيل من الزيف ٠

ان الحياة حديقة جميله ، ومبادىء الاسلام أجمل أزهـارها ، ولكن فى طبيعة النمـو النباتي ، وتنقـل البذور ، أن تنمـو بعض الحشائش الضارة ، وتلتف حول هذه الأزهار ٠ ولابد لهذه الحديقة من بستاني يتعهدها بالرعاية فيستأصـل هذه الحشـائش ، حتى لا تلتف حول الأزهار فتقتلها أو تضعفها ٠

والأستاذ أنور الجندى بستانى خبير فى ميدان البحث الدينى والأدبى ٠ ولست أشـك فى أن قـراء كتـابه هـذا سـيضمون الى استمتاعهم بآرائه ، شعورهم بتقديره والثناء عليه ٠

فليبارك له الله تعالى فيما كتب ، وليبارك لهم فيما يقرءون ٠

مهدى علام

مدخل إلى البحث

إن حقائق كثيرة ، ووثائق عديدة ، تكشفت فى السنوات الأخيرة ، لها أثر كبير على كثير من الآراء والنظريات والقضايا التى كانت تعد فى نظر الكثيرين من المسلمات فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ ، بينما هى شبهات زائفة صيغت فى صورة براقة خادعة ، فبدت كأنما هى حقائق ، واستمر خداعها زمناً طويلاً ، وكان بعيد الأثر فى تحقيق أهداف التغريب والغزو الثقافى الرامية إلى انتقاص قيمنا وزلزلة الثقة بمفاهيمنا وعقائدنا .

ومن شأن هذه الحقائق أن تدعونا إلى إعادة النظر من جديد فى آفاق الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، وموقفها من الفكر الوافد .

ومن أخطر ما تكشف فى سنوات مابعد الحرب العالمية الثانية تلك المخططات الاستعمارية الصهيونية السرية الرامية إلى تدمير المجتمعات الإنسانية ، وخاصة المجتمع الإسلامى العربى عن طريق طرح عديد من النظريات والمذاهب الوثنية والمادية المتصلة بالنفس

الإنسانية ، والأخلاق والعقائد والتاريخ واللغة ، ومقارنات الأديان والتربية .

وقد قصدت هذه المخططات إلى محاولة تغريب العرب والمسلمين وتفريغ الفكر الإسلامي العربي من مقوماته وقيمه وذاتيته في بوتقة الفكر العالمي الوثني المادي ، والعمل على إسقاط الفكر الإسلامي والقيم الإسلامية ، وإخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقدراتهم وتذويبهم في الأممية والعالمية .

وقد جرى ذلك عن طريق خلق دائرة براقة تحمل لواء ما يسمى بالحرية الفكرية والعصرية ثم عمدت هذه الدعوة إلى إعلاء شأن الماضي الفرعوني والأغريقي والجاهلي العربي ، وإحياء الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السريانية والمجوسية والباطنية ، وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس .. إلخ .

ثم عمدت هذه الخطة إلى إخراج التاريخ الإسلامي وبطولاته عن مفاهيمها الإسلامية ، وذلك بالتشكيك فيها أو إخضاعها للمفهوم المأسوي الأغريقي الذي يختلف اختلافاً واضحاً مع مفهوم التوحيد الإسلامي .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن هذه الخطة شملت طرح نظريات خطيرة فى مجال العبقرية والأجناس ، وفى مجال علم الدين المقارن ، وفى مجال تزييف الأخلاق والقيم ومفاهيم الحضارة والتاريخ والأدب .

وجرى ذلك كله من خلال نقطة انطلاق واحدة هى [المادية] التى ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية وتدعو إلى بعث الوثنيات وأفكار العنوصية والأباحية والإلحاد .

* * *

ولقد وضعت هذا المخطط قوى كثيرة ، هى الصهيونية ، والاستعمار ، والمادية ، وهى قوى كلها تجمع على العمل لسحق المسلمين والعرب ، والسيطرة على مقدراتهم وثرواتهم مع الحيلولة بينهم وبين امتلاك إرادتهم أو استعادة قوتهم وذاتيتهم .

وقد انطلقت هذه القوى من نقطة واحدة هى :

إزالة شخصية (عالم العرب والإسلام) وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الأممية والعالمية ، واحتواء مفاهيمه وقيمه ، حتى يصبح تابعاً ليس من جهة مقدراته وثروته فحسب ، بل من خلال وجوده وكيانه وشخصيته .

ولقد جرى تنفيذا هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاستعمارية والدولية والصهيونية ، واتخذت من التبشير ومعاهد الإرساليات والمحافل الماسونية أداتها ، فقد انبث خريجو هذه المعاهد والمحافل ، فسيطروا على بعض وسائل الصحافة والثقافة والمدرسة واتخذوا منها فى بعض الأقطار أداة على تغيير فكر هذه الأمة وتزييف مضامينه وبعث الفلسفة الماسونية المادية التى تستهدف تدمير القيم والأخلاق والأديان وطرح عشرات من الشبهات والأشواك والأخطاء أمام المثقفين .

وقد استطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى فى النفوس والعقول — آنذاك — لأن الاستعمار قد فسح لها الطريق ، حين عمل على تحطيم الحصانة النفسية والروحية التى كانت تحمى النفس العربية الإسلامية من الغزو — حين ألغى دراسة الإسلام والعربية والقرآن من مناهج التعليم المفروضة ، والتى كانت جميعها أو أغلبها تدرس بلغة المستعمر : الانجليزية ؛ فى مصر والسودان وفلسطين والعراق — والفرنسية : فى المغرب كله وسوريا ولبنان .

فقد استطاعت قوى الاستعمار حين سيطرت على مناهج التعليم

أن تفرغها من مفاهيم الإسلام الصحيحة ، وأن تباعد بين الشباب المتعلم وبين منهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى ، ثم حولت مفهوم الإسلام إلى مفهوم لاهوتى قاصر لا يمثل عظمة الإسلام الجامع (ديناً ونظام مجتمع) .

ومن ثم دخلت مفاهيم الإسلام زيوف كثيرة ، واختلطت بمفاهيم الوثنية والماديه والأديان الوضعية غير السماوية ، التى خرجت عن التوحيد والتقوى .

* * *

لقد كان الإسلام فى ذاته يحمل من الأصالة ما يجعل فكره متميزاً عن فكر أى أمة أخرى ، هذه الأصالة التى استمدها من وحى السماء ورسالة النبوة وكلمات الله المنزلة .

ولقد كانت نقطة البدء فى هذا المخطط كله كلمة واحدة : هى إخراج المسلمين والعرب من مقومات فكرهم ، هذه المقومات التى أمدتهم فى كل أزمة وماتزال وستظل تمدهم ، بالقوة والصلابة والصمود فى وجه كل غزو وإزاء كل قوة خارجية .

وما دام المسلمون والعرب مستمسكين بمقومات فكرهم التى

استمدوها من القرآن أساساً ، فإن أى قوة غازية أو مسيطرة تعجز — كما عجزت مرات على طوال التاريخ الإسلامى — عن أن تقف فى وجههم ، وإنهم إذا عادوا إلى مصادرهم ومنابعهم فإنهم سيكونون قادرين على الصمود فى وجه أعتى قوى الأرض ، ومواجهتها وسحقها .

ولذلك فإن العمل الخطير — فى تقدير حركة التغريب — هو تزييف هذه المقومات وإشاعة الشبهات حولها ، ومسخها وضربها بمفاهيم أخرى على سبيل خلق الشكوك والريب ، وكذلك إفساد المصادر نفسها بالإسرائيليات القديمة والجديدة ، وإفساد القائمين على هذا الفكر بالتبعية والولاء والطموح إلى المناصب والثراء ، وإفساد من تلقى إليهم بتفريغ مناهجهم المدرسية من (روح الإسلام) .

* * *

ومن ثم يصبح ما يتبقى من مظاهر الإسلام كدين لاهوتى بدون قيمة حقيقية ولا قدرة له على التصحيح ، ومن ثم فهى لن تحمى هذه النفوس والعقول من أهواء المغريات التى يطرحها بريق الحضارة تحت الأضواء وحول النار ، نار الشهوات واللذات والمتع

والمغريات مع سريان مذاهب الإباحة والإلحاد ، وتشبع الثقافات بها ، وترويج القصص الجنسية لها .

ومن شأن وسائل الإغراء بالصورة العارية والكلمة المكشوفة ، أن تقدم فى هذا المجال ما لا يدع للنفس العربية الإسلامية ولا للعقل العربى الإسلامى مجالا للبحث عن قيم الأخلاق والإيمان والتوحيد ، ظنا منهم أنها ستدوب كلها تحت ضربات معاول الهدم الصارمة ذلك هو لُب المخطط الخطير الذى فرضته القوى الاستعمارية الصهيونية على عالم العرب والإسلام ، واستطاعت خلال خمسين عاما أن تغرقها فيه إغراقاً ، بينما زحفت قوى الغزو الصهيونى واستطاعت فى غفلة مؤقتة أن تسيطر على فلسطين ، فالقدس .

وإن أخطر ما يواجه العرب والمسلمين اليوم إنهم قد يتحركون من داخل دائرة الفكر الذى فرضه عليهم النفوذ التغريبي الخطير ، ولذلك فإن أول علامات اليقظة والمقاومة هى التحرر من مقاييس التغريب ومذاهبه والمفاهيم التى حاول أن يفرضها — وهى زائفة أصلا — من أجل تدمير النفس العربية الإسلامية ، واحتواء العقل العربى الإسلامى .

إن أول علامات اليقظة أن نكتشف هذا المخطط وأن نعيد النظر فى المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المنحرفة والشبهات المطروحة (وهذا ما سنحاوله فى هذه الدراسة) ذلك أن أصالة الذاتية العربية الإسلامية الجذور ، الصلبة المؤمنة تتمثل فى أنها لم تستسلم أبداً ، وأن هناك ضوء كاشفا أخذ يدحض هذه الشبهات وهو ضوء قد امتد على الزمن ولم يتوقف ولم ينقطع ، استيقظ قبل الغزو الاستعمارى وما تزال الأحداث تمده بالقدرة على المقاومة ، ولقد كانت أزمة ١٩٦٧ واحتلال القدس عاملا هاماً فى التفاته إلى الحقيقة التى ليس بعدها حق ، التفاته إلى المصادر الأصيلة لوجوده وكيانه وحياته ، فقد كشفت له الأحداث والتجارب أن بلسم جراحه ، وضياء روحه لن يكون إلا من داخله ، لن يصل إليه عن مصدر آخر غير المصدر الأول ؛ الذى تشكل منه عندما بزغ ضوء الإسلام ، وأن آية النصر ما زالت هى الاستمداد من المنابع الأصيلة ، وأن أمة ما لن تستطيع أن تعود إلى الحياة ، ولا أن تصمد فى وجه الغزاة إلا إذا التمست الضياء من أعماقها ، من داخلها ، من كنزها المدخر ، الذى إن زهدت فيه حيناً وتطلعت إلى ما فى أيدى الآخرين ، فإنها

قد آمنت أخيراً بعد الصدمات والتضحيات أنه لا سبيل أمامها إلا التماس المنابع الغنية والمصادر الثرة التى كونت الذاتية الإسلامية العربية وشكلتها أول مرة ، ووضعت لها مقومات حياتها وقوتها وانبعاثها مرة أخرى كلما ألمت بها الأحداث وادلهمت حولها الخطوب إن المصدر الحقيقى هو « القرآن » ونقطة البدء هى « التوحيد » ، وفى هذا الضوء ننظر فى هذه الشبهات التى طرحها التغريب ، ونعيد النظر فى هذه القضايا والنظريات .

* * *

ونحن نذكر هنا جيداً كيف قام كفاح المسلمين ، فلم يتوقف لتحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الثقافة والعقلية التى سلطها عليه الفرس واليونان والهنود ، كان إيمانهم بإبتعاث شخصيتهم الإسلامية العربية ، والحيلولة دون أن تذوب وتتلاشى ، هو مصدر كل نصر وقوة وحياة .

إن المحاولات الدائمة لإخراجنا من إطار فكرنا الإسلامى العربى لم يتوقف منذ أكثر من خمسين عاماً ، وهى تتشكل كل يوم فى صورة أو أخرى ، حمل لواءها الاستعمار والتبشير

والاستشراق والشعوبية والتغريب والغزو الثقافى ، وحاولت انتهاز كل نكبة أو نكسة لتجديد دعوتها المسمومة التى تحاول أن تلقى أمتنا فى تيه مظلم لا ضياء معه ، ولا نور حين تدعونا أن نتحرر من كل المقدسات والقيم ، وأن تتخلص من الماضى كله وأن تزدرى العقائد ومفاهيم الأديان السماوية ، وتعمل على دفع النفس العربية الإسلامية عن الخروج عن ذاتيتها ومزاجها النفسى بخروجها عن الأخلاق والإيمان والتوحيد .

ولقد جرت منذ نكسة ١٩٦٧ أقلام كثيرة بكلمات ماكرة ، تبعث اليأس وتدعو إلى الخروج عن القيم والأديان وتزدرى التاريخ والتراث والشريعة واللغة ، وهى دعوات باطلة لأنها تصدر ممن لا يؤمنون بهذه الأمة ولا يريدون لها الخير .

ولقد طرحت هذه الدعوات أفكاراً ومذاهب وآراء أثارت الشبهات فى صدور بعض شبابنا وعقولهم ، فحق لأداة التصحيح أن تظهر ضياء الحقيقة ، وأصبح ضروريا أن تحرر القيم وتصحح المفاهيم ، وتكشف البواعث والغايات التى تكمن وراء هذه الشبهات المسمومة .

* * *

إن الهدف هو « تغريب الفكر الإسلامى » ووضعه فى قيود الوثنية والمادية والإلحاد والإباحيه .

ولكن الفكر الإسلامى صاحب الأصالة المستمدة من جوهره الناصع القرآنى ، ومن ماضيه الطويل وجذوره العميقة الثابتة قادر على أن يدفع عن نفسه هذه الموجة الطاغية كما دفع الموجات المتوالية السابقة وانتصر عليها ، ذلك لأنه يستمد من معين التوحيد ومن الحق ومن الفطرة ومن القرآن الذى يفرق بين الحق والباطل ، والذى نزل للإنسانية هاديا فى حيرتها ، فقد جاء القرآن تصحيحاً لكل المفاهيم والمذاهب والدعوات التى حرفت مفهوم الرسالة السماوية الحقة، التى جاءت على أيدى رسل الله ، فكشف عن كل عوامل التحريف ووضع لنا القواعد التى لاتبلى فى مواجهة أخطار التغريب والتزييف ، لقد أقام الإسلام عالما من الحق والإيمان فى مواجهة عالم الباطل فحق عليه أن يجالد أخطار الوثنية والإلحاد ولا يتوقف عن المجالدة على مدى الزمن صامداً قادراً مستمداً أسانيده وحججه من ذلك المعين الصادق .

لقد جاء الإسلام بعد أن تشكلت للوثنية المادية فلسفة ومناهج

ومذاهب كشف عنها القرآن وزيفها وأبان وجه الحق فيها ، وما تزال موجة الوثنية تقوم فى غيبة الحق وتعلو وتنشر جناحها ، ثم يجيء المصلحون الأبرار من علماء المسلمين فيكشفون الزيف ويردون الحق إلى نصابه .

ونحن الآن نعيش فى موجة ضارية من هذه الموجات استطاعت أن تلبس لباس العلم والفلسفة وأن تقيم باطلها على أساليب براقة خادعة فى عالم اضطربت مقاييسه ونظمه ، فحق على المسلمين وفرض عليهم أن يتقدموا ويحملوا مشعل التوحيد والإيمان لتحرير المناهج وتصحيح الآراء ، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، ويتم الله نوره ويعلى عالمه ويذل عالم الوثنية المادية .

وإذا بدا أن المادية والوثنية مسيطرة اليوم فإنما هى جولة من جولات الباطل ثم ينكشف الحق واضحاً والحق ظاهراً .

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته)

إن أهم أهداف الفكر الإسلامى فى العصر الحاضر وكبرى تحدياته هى :

تصحيح المصطلحات ، وتحرير القيم من مفاهيم وافدة أو زائفة تريد أن تحل محل المفاهيم الأصيلة ، وسنة مخططات التغريب ترمى إلى إحلال « مفاهيم دخيلة » بدلا من « المفاهيم الأصيلة » التى يراد إبعادها عن مجال الحياة والفكر .

ذلك أن أولى مهام الغزو الثقافى هو تزييف الحقائق وتمويهها وإفساد مضامينها ولذلك كانت صيحة حركة اليقظة منذ أكثر من مائة عام هى المناداة بالتماس الأصول والمنابع ، وأن لا نمتص أى شىء قبل عرضه على مقاييس فكرنا ، ولقد كان المسلمون والعرب على مدى التاريخ ، كلما تدلهم الأحداث وتحيط بهم أزمات الغزو الخارجى يتنادون بالعودة إلى المنابع ، فالتماس المنابع هو الأصالة وهو الضوء الحقيقى الهادى إلى الطريق ، دون شك أو ريب ، دون خوف أو تردد .

[تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتى] .

لقد طرحت فى السنوات الأخيرة « مفاهيم » جديدة وافدة لقيم عالمية ، وجرت محاولات لتصوير هذه المفاهيم بصورة علمية لهـا بريق متوهج وطابع لامع . وذلك فى محاولة لإحلالها فى مكان مفاهيمنا الأصيلة لتلك القيم . ولقد بدا بعد وقت ليس بالتصير [عدم تقبل] الذاتية العربية الإسلامية والمزاج النفسى للعرب والمسلمين لهذه المفاهيم الوافدة مهما بدا من بريقها وازدهارها .

* * *

وقد اتصلت هذه المفاهيم بكثير من قضايا الفكر وخاصة منها نظريات التطور ، والحرية ، والعقلانية ومفهوم القيم والتقدم والتجديد والأصالة ، وعلاقة مناهج العلوم بالإنسانيات والمجتمع .

كما اتصل ذلك بمفاهيم البطولة والنبوة ، ومفاهيم المأساة والتراجيديا والفن ، واتجه أكثر الحديث نحو الشباب فيما يتصل بلقاء الأجيال أو صراعها ، وفيما يتعلق بالأساطير والأدب ومفهوم الحضارة ، وامتد إلى ما يتصل بالترجمة وبالمصطلحات المتعددة كالضمير والنرفانا وغيرها .

وتشكل هذه المجموعة من المفاهيم قضية واحدة تتفرع إلى قضايا ، ويمكن أن يطلق عليها جميعا « قضية تصحيح المفاهيم » وتحرير القيم والكشف عن أخطاء المصطلحات .

ونحن أمام هذه المفاهيم على رأى واضح محدد :

هو أن لكل قيمة من القيم مفاهيم مختلفة ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التى تستمد مفاهيمها من تراث طويل قوامه عقائد وتاريخ ولغة ومزاج نفسى .

هذا فضلا عن أن ما يقدم لنا ليس حقيقة علمية أو مفهوما عالميا مقررا يمكن تطبيقه على النفس الإنسانية عامة ، أو على المجتمعات قاطبة ، وما من قضية تطرح فى مختلف مجالات الفكر والعقائد والثقافة إلا ولنا « نحن المسلمين » نظرية أصيلة فيها ومفهوم شامل ، ومنهج متكامل ، وما من جديد يمكن أن يقال إلا ويجب النظر فيه فى ضوء مقاييسنا وقيمنا ، ولقد كانت النظرة الإسلامية هادية للبشرية كلها منذ أن فجرت طاقاتها قبل خمسة عشر قرنا لأنها استمدت مفهوم قيمها من مصدر واحد هو الفطرة الإنسانية القائمة على التوحيد والإيمان بالله والتى اتخذت من الالتزام الخلقى قاعدة لحركتها .

لقد قدم الإسلام للبشرية منهجاً متكاملا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة ، وهو منهج تطبيقى عملى وليس منهجاً نظرياً أو مثالياً ، هو منهج القرآن القائم على الأصالة والربانية والحق .

فنحن فى كل مجال يتحتم علينا أن نقف و نسأل عن مفهومنا لكل ما تطرحه النظريات المختلفة .

إن النظرية الوافدة دوما هى من صنع قوم آخرين ، أقاموها على مقياس مجتمعهم وابتدعوها فى ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً هذه التحديات التى ربما دفعتهم إلى الانفصال عن مناهج الأديان والتماس الحلول من الفلسفات ، أما نحن ، فإن الأمر لدينا يختلف .

* * *

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الوافد نتيجه للاستعمار وقامت عن طريق إرادة مقيدة فى ظل سيطرة النفوذ الأجنبى على التعليم والصحافة والثقافة ، ولم تكن هذه التبعية اتجاها طبيعيا ولا رغبة أصيلة .

ولقد كان الفكر الإسلامى — دائماً — ولايزال متفتحاً لثمرات الفكر البشرى ، ولكنه كان قادراً — حتى فى أشد مراحل الضعف والتخلف — على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون انصهاره فى الفكر العالمى .

* * *

ونستطيع هنا أن نضع واحدة من الوثائق الكثيرة التي تكشف هدف الحملة على الإسلام وهى ما نشرته جديدة « التيمس » فقالت :

« كان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء وقد يتقدم إلى الحضر ، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية وأن يصل إلى جنوب أفريقيا .

وقالت : ويختلف الغربيون فى اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الإسلام فى أفريقيا فمن قائل أن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير (أى الإسلام) فى الخطوط التى رسمها له الاستعمار .

بينما يرى آخرون ضرورة (الحد من تقدم الإسلام) عن طريق نشر البدع والخرافات (أى نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام لإفساده وإزالة حقيقة الإسلام عنه على بقاء اسم الإسلام عنواناً له) حتى يكون ذلك بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد » .

وهكذا يؤكد هذا النص أن هناك محاولتين فى مواجهة الإسلام [الأولى] أن يتحرك الإسلام فى الخطوط التى رسمها له الاستعمار أى فى دائرة التغريب والغزو الثقافى ومع العمل الدائم للتبشير والاستشراق .

والمحاولة [الثانية] هى : نشر البدع والخرافات وتحريف المفاهيم والقيم وهذا ما يطلق عليه [هدم الإسلام من الداخل] وإن نظرة واحدة إلى هدف التغريب كما صوره دهاقنة الاستعمار والنفوذ الغربى ليؤكد هذا المعنى فهم يهدفون منه إلى [إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية وتنفر من الدين وتعمل على إبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه] ، وبذلك تعمل من خلف ستار دون أن تواجه المشاعر الدينية بالعداوة السافرة وعندهم أن أبرز معالم التغريب هى غرس مفاهيم ثقافية وتربوية فى نفوس المسلمين تخلق فيهم نزعة الاحتقار لقيمهم والاعتزاز بقيم الغرب .

* * *

وتتصل هذه المفاهيم بتحريف التاريخ الإسلامى وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى لعبه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ومحاولة خلق شعور بالنقص فى نفوس المسلمين يحملهم على الرضا والخضوع للنزعات والمذاهب الغربية ، وكذلك العمل عن طريق المناهج الدراسية ووسائل الثقافة والفكر على توهين القيم الإسلامية والغض من الأمة العربية وتغييب هذه القيم وإحلال قيم أخرى بدلا منها بحيث تصبح هذه القيم الجديدة معتقدات عامة .

وبالجملة فالتغريب محاولة لحمل (عالم العرب والإسلام) على قبول ذهنية الغرب والانصهار فى بوتقة فكره ومفاهيمه والتحرك من خلال المناهج والأساليب والوسائل التى فرضها على العقل الإسلامى العربى والنفس الإسلامية العربية وهذه هى أخطر مراحل التغريب .

ذلك لأن أخطر سيطرة فكر على فكر هى نقله من دائرة فكره وأساليبه ومزاجه النفسى وترويضه على التحرك فى دائرة الفكر الوافد المسيطر .

* * *

ولذلك فإن أول خطوات التحرر من نفوذ التغريب والغزو الثقافى هو فرز المفاهيم الوافدة والكشف عنها وتنحيها وتحرير الفكر الإسلامى منها وإعادته إلى التماس مفاهيمه الأصيلة للقيم بدلا من المفاهيم الدخيلة .

ونحن إزاء ذلك كله لابد أن نواجه الحقائق الآتية :

(أولا) أن كل ما كتبه الغربيون من حملة على الدين فإنما كان المقصود بها هو دين الغرب أساساً وأن نقل هذه القضية إلى الفكر الإسلامى هو نوع من التمويه ، ذلك أن الفكر الإسلامى لم يعرف فى تاريخه كله أزمة خلاف بين الدين والعلم ، أو صراع بين الأخلاق

والمجتمع ، أما مفهوم الغرب فقد كونته ظروفه التاريخية من جهة ، وطبيعة فهمه للدين والحياة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى موروثاته الوثنية اليونانية .

ومن أكبر الأخطاء : أن مشاكل الغرب وقضاياه التى مرت بظروف مختلفة نقلناها وكأنها حقائق ، وأن نظرياته المطروحة للبحث وفروضه فى مجال النفس والأخلاق والتربية ، حاولنا أن نؤمن بها وكأنها علم مقرر أو أمور ثابتة .

(ثانيا) أن أموراً كثيرة قد جرى طرحها وفهمها من خلال مقاييس الغرب ، وللغرب مقاييس فى مجال التاريخ واللغة والعقائد ولنا مقاييس مختلفة ، ومفتاح مقاييسنا الأصيل هو : تكامل القيم ، وترابطها كوحدات منتمية إلى أصل واحد .

(ثالثا) أن من أبرز قواعد مقاييسنا أن الإنسان يعيش فى دائرتين متصلتين :

دائرة مادية ، ودائرة معنوية ، وأنه جماع الروح والمادة والقلب والعقل ولذلك فقد جاءت رسالة الإسلام إنسانية ، وليست روحية صرفة أو مادية صرفة .

(رابعا) أن تاريخ أى أمة هو وحدة كاملة، متصلة الحلقات، وكذلك يمثل تاريخ فكرها وحدة لها ذاتيتها وكيانها ومزاجها النفسى والاجتماعى.

(خامساً) أن هناك محاولة دائمة لترديد كلمة العقائد الموروثة فى باب الانتقاص أو التقليل من شأنها، وهى كلمة يراد بها أساسا الغض من شأن الأديان والقيم الإسلامية والمعروف أن العقائد الموروثة صنفان :

أصيل وزائف، وحى وميت، وهى فى إطلاقها دون تحديد نوعها إنما تريد بالتمويه أن تخدع الناس عن غايتها.

أما فى الفكر الإسلامى فالعقائد الموروثة أصيلة لأنها مستمدة من القرآن ولا سبيل إلى التخلص منها، أما العقائد الزائفة فتلك هى التى حاربها الإسلام نفسه كالوثنية والأساطير وعبادة الفرد وعبادة البطولة وإنكار ترابط الدنيا والآخرة أو إنكار البعث والجزاء.

(سادسا) والقيم ثابتة ومتغيرة.

وليست هناك قيم تخضع للتطور الدائم المطلق، والقيم الأخلاقية

ثابتة ثبوت الإنسان نفسه ، فى تركيبه وخلقه وهى لا تتغير بتغير المجتمعات أو الأزمان .

وإنمـا تتغير القيم الصغرى المتصلة بالتقاليد والعادات وغيرها .

(سابعا) هناك تفرقة واضحة فى مفاهيم الفكر الإسلامى بين مقاييس العلوم ، ومقاييس الإنسانيات والنفوس .

مقاييس العلوم : مقاييس مادية ، وهى مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذى لا يتغير وهذه المقاييس لا تستطيع أن تخضع الإنسان ولا المجتمع ولا النفوس والأخلاق إلى نتائجها .

ومن الحق أن يقال إن للعلوم المادية مقاييس وإن للإنسانيات مقاييس أخرى ، فإذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم فى مجال النفوس أخطأت وأفسدت ولم تصل إلى غاية علمية حقيقية .

وبعد فنحن فى ضوء الإسلام ، وفى ضوء مقاييس الإسلام ، نستطيع أن نواجه هذه المجموعة من مشاكل الفكر على النحو الذى واجهنا به قضايا العصر [1] .

والله المستعان . . .

---

(١) راجع كتابنا فى هذه السلسلة : قضايا العصر في ضوء الإسلام .

— ١ —

قضية القيم

ما هى القيم • هل هى ثابتة أم متغيرة

ان القيم ، تتشابه فى مختلف الثقافات اسما ولكنها تختلف مضمونا • لكل قيمة مفهومها ، المختلف بين أمة وأمة وبين فكر وفكر فما هو مفهوم الاسلام فى قضية الفكر ، وما هو مفهومهما المختلف عن الفكر الغربى ؟

قضية القيم

انتقل مصلح القيمة من مجال الاقتصاد إلى مجال الاجتماع وارتبط منذ اليوم الأول باسم الخير والخير الأسمى، واعتبر الفلاسفة القيم فى صميمها إنسانيه، ومندمجة فى السلوك الإنسانى نفسه فهى ليست مجردة مستقلة فى ذاتها ولا منفصلة عن الإنسان نفسه، بحيث يتخذ من سلوك الفرد دليلا على القيمة التى يؤمن بها وقالوا : إن الإنسان حامل القيم وهى بخلاف الموجودات فإنها كونية مستقلة عن الإنسان بعيدة عنه .

والقيم روحية ومادية، ونفسية واجتماعية، وذاتية وموضوعية وتتمثل مفاهيم القيم فى مجموعتين :

قيم ثابتة ، وقيم متغيرة ، والقيم الثابتة لا تخضع للأزمان ولا للبيئات ولا تتغير بتغير الأماكن ولا العصور، فهى قيم مرتبطة بالإنسان من حيث هو إنسان مشكل من روح ومادة ومن جسم ونفس ، وهذه هى القيم الكبرى المرتبطة بالمعتقدات والأديان والأخلاق ، والتى تقوم على أساس إنسانى خالص ، قوامه الحب والإخاء والرحمة أما القيم الأخرى المتغيرة فإنها تختلف باختلاف

الزمان والمكان وتخضع لاختلاف الظروف الاجتماعية والبيئية .

* * *

وهذا المفهوم العلمى للقيم هو مفهوم الإسلام ، وقد أقر الإسلام القيم النفسية والاجتماعية والمادية جميعاً ، فى تكامل يستهدف تغطية حاجات الإنسان ويرتفع به عن المطامع والأهواء وكان الإسلام واضح التركيز على القيم البشرية انطلاقاً منه بالإنسان من أصدق منطلقاته وهى الفطرة ، فقد دعا الإسلام إلى الزواج والشراب والزينة والطعام والعمران وركز حول ذلك الجانب الاجتماعى قيما ثابتة وجعل لها ضوابط أهمها التوسط وعدم الإسراف ، وأقر الإسلام كل مطالب النفس والجسم فى مختلف مجالات الحس والغرائز ، ولم يحرمها وإنما اختط لها الطريق المشروع بالزواج وإباحتها فى حدود الاعتدال [وكلوا واشربوا ولا تسرفوا[1] [قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق][2] [ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة][3] .

---

(١) من آية ٣١ سورة الأعراف .
(٢) من آية ٣٢ سورة الأعراف .
(٣) من آية ٢١ سورة الروم .

وإنما حرم الإسلام الزنا والربا والخمر والميسر والميتة ولحم الخنزير وحرم القتل وانتهاك الأعراض وذلك تكريما للنفس البشرية وارتفاعاً بها عن الحيوانية ، وحماية لها من المهلكات ، وحياطة لهذا الكيان الإنسانى (نفساً وجسما وروحا) من أن يدمره الإسراف فى الملذات أوالخروج عن الاعتدال .

* * *

وبذلك وضع الإسلام نظاما للقيم يختلف فى كثير من عناصره ومواده عن الأنظمة التى عرفتها حضارات الرومان والفرس والأديان السالفة وبذلك نحى النفس الانسانية وحماها عن أخطار كثيرة .

(أولا) حماها من أخطار الزهادة واحتقار المادة وقتل النفس وحرمانها من الملذات التى أباحها الله لها .

(ثانيا) حماها من إسراف اللذات والشهوات وتدمير الأجساد والمجتمعات نتيجة لضعف قدرة قادتها على حمايتها والدفاع عنها .

(ثالثاً) رفع النفس الإنسانية عن العبودية لغير الله ، ونحاها عن أن تستعبدها الشهوات واللذات أو يستعبدها الحكام وأصحاب الرئاسات على النحو الذى عرفته المجتمعات واليونانية الرومانية والفارسية القديمة التى كانت ترى كل ما سوى الأمراء عبيدا وخدما

وإقطاعاً وملكا خاضعاً للقتل والإذلال دونما رحمة ولا كرامة .

***

لقد جعل الإسلام أساس القيم : التوحيد والتقوى والعدل والكرامة الإنسانية والإيمان بالله ونادى بالحرية والعلم والعمل ودعا إلى السلام والإخاء وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة [ووائم] بين القوى المادية والروحية وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط بعيداً عن الشهوات المدمرة والزهادة المدمرة ، بين الترف المفسد ، وبين الحرمان القاتل ، وازن الاسلام بين مطالب الروح ومطالب الجسم ، ودعا إلى التوسط والاعتدال . ومعنى هذا أن الإسلام لم يعتبر القيم المادية قيما مبغوضة أو محتقرة أو مرفوضة ولكنه جعلها على قدم المساواة مع القيم النفسية والروحية وجعل كمال الانسان فى تكامل قيمه من حيث هو نفس وروح وجسد .

ولم يمنع الإسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئات والأزمنة دون المساس بالقيم العليا الثابتة ، فقبل أن يكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدينة ، قبل أن يكون لمصر من الأمصار قيم تختلف عن قطر آخر ، هذا التفاوت والاختلاف فى القيم الصغرى جائز بل هو ضرورى فى تقدير الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى

بشرط عدم الخروج عن القيم الكبرى التى أقرها الإسلام وتحركا فى دائرة التوحيد والتقوى والعدل والإيمان بالله .

* * *

ومن هنا اختلف الفكر الإسلامى مع الفكر الغربى فيما أطلق عليه نظرية (سلم القيم) أو ترتيب القيم ، ومن شأن فكر كل أمة من الأمم أن يختار الأسلوب الذى يراه فى النظر إلى القيم وإذا كان الفكر الغربى يرى أن للقيم قائمة وأن ترتيب هذه القيم صعوداً ونزولا تختلف باختلاف العصور والجماعات ، فإن الفكر الإسلامى لا يعترف بغير مفهومه فى تقسيم القيم إلى : ثابتة ومتغيرة .

أما القيم الثابتة فهى ثابتة أبدا لأنها تتصل بالإسلام وليس الإسلام دينا وضعيا يتطور مع الزمن كما تتطور الأديان الوضعية والفلسفات وإنما هو دين سماوى يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه وليلتقوا به ، ولما كان الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان ، فإن هذه القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان مستجيبة لحاجاته وحامية له .

ولا شك أن الدعوة إلى تغيير قائمة القيم أو ما يسمى هى واحدة من الدعوات التى حملت لواءها الفلسفة المادية ومن ورائها

دعاة تدمير القيم الإنسانية ، وإحلال مفهوم التطور للمطلق والحرية غير المحدودة من أجل تدمير القوى البشرية التي تستطيع أن تصيد فى وجه محالة السيطرة على العالم ، ومهما قال دعاة هذه النظرية من أن ظروف العيش أو تطور المجتمعات أو تغير الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية أو تحول الأمم من الزراعة إلى الصناعة ومن شأنها أن تقيم أخلاقا جديدة فإن ذلك كله لا يستطيع أن ينفى أن الإنسان نفسه فى كل هذه المراحل المختلفة هو الإنسان بطبيعته وتكوينه وتركيبه النفسى والعقلى خاضع لقيم عليا ثابتة ، أما تطور المجتمعات والأمم والاقتصاد والاجتماع فانه لا شك يحدث تغييراً مقرراً ومعترفاً به وهو ما يتصل بالقيم الصغرى أو القيم غير الثابتة ، تلك التى تتغير بالانتقال من المجتمعات الزراعية إلى المجتمعات الصناعية .

وليس من شأن هذا التغير أن يحطم قيمة من القيم العليا ، كأن يسمح بإلغاء الزواج مثلا ، أو تحليل الربا ، أو إطلاق العلاقات الجنسية ، أو التملل من العبادات أو الخروج فى دائرة المعاملات عن الأصول الثابتة فى الاقتصاد أو التربية أو الشريعة أو النظم الاجتماعية .

إن الإسلام يفسح صدره للتغيير والتطور الذى يحدث باختلاف

الأزمنة والبيئات وأن القيم التى قررها هى قيم مرنة متقبلة لكل تغير فى التفصيلات والفروع . أما أن تكون الدعوة إلى تغيير سلم القيم مدعاة إلى تحطيم القيم الثابتة الأساسية فهذا مالا يقره الإسلام، ذلك أن الأمر ليس هو متابعة القيم للحضارة فى كل تطوراتها بل هو حماية الإنسان من أن تدمره الحضارة .

* * *

وأبرز ما يرتفع فى سلم القيم الثابتة فى الإسلام .

التوحيد والأخلاق والعدل والتقوى والإيمان بالله :

فلا يقر الإسلام دعوة ما تحاول أن تصدع هذه القيم وإذا قيل إن للمجتمعات الصناعية أخلاقاً غير المجتمعات الزراعية فإن ذلك لايعنى بأى حال تقبل التحلل الأخلاقى أو إلغاء أنظمة المجتمع أو التربية أو إباحة الربا أو غيره وإنما يعنى أن تختلف أساليب العيش فى السكن وصناعة الطعام والمواصلات والرى وإقامة الأفراح وتبادل المصالح، ولكنها لا تقضى بحال على القيمة الأساسية المتصلة بالعبادات أو الأخلاق أو أنظمة المعاملات وقوانين الشريعة الاسلامية .

إن النظام الاجتماعى القائم على الأسرة هو نظام فطرى أساسى

لا تستطيع نظرية (سلم القيم) أن تهدمه أو تحطمه ، مهما تحدث دعاة التغريب فى سخرية أو تشكيك عن عفة المرأة ، ذلك أن نظرية دوركايم القائمة على القول بأن الفطرة ليست فى الزواج ، هى نظرية زائفة ولا يقرها منصف واحد من علماء الاجتماع فى الشرق أو الغرب وإنما يعرف الناس أن دوركايم هو أداة من أدوات الصهيونية العالمية التى حملت لواء الدعوة إلى تدمير النفس الإنسانية أخلاقياً وإلى تزييف التفسير الإنسانى للتاريخ وإلى مهاجمة الأنظمة الاجتماعية الثابتة كنظام الأسرة والدين ولقد أكد التاريخ البشرى فى مساره الطويل سلامة هذه القيم فى حياة الإنسان :

* * *

أما الذين يرون أن ما أصاب العرب والمسلمين من شأنه أن يدعو إلى إعادة النظر فى كثير من القيم ، فنحن معهم فى هذا ، ولـكن بمفهوم آخر ذلك هو أن المسلمين والعرب كانوا قد تخلوا عن القيم التى وسدها لهم الإسلام وأن هذا هو مصدر هزيمتهم ونـكستهم وأنهم لو عادوا إلى سلم القيم الإسلامى وأقاموا صرح القيمة الثابتة على النحو الذى ارتضاه لهم الاسلام لـكان ذلك مصدراً هاماً فى القدرة على مواجهة خصومهم والانتصار عليهم .

إن أزمة القيم فى عالم المسلمين والعرب تدعونا إلى التماس مفهومنا الأصيل والتخلى عن المفاهيم الزائفة الوافدة التى حاولت أن تكتسح مفهومنا وتسيطر على مجتمعاتنا وكياننا ، ويمكن القول على الإجمال بأن اتجاه الفكر الغربى إلى تدمير القيم إنما جاء نتيجة للآثار التى أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفة فى الزهادة والرهبنة والدعوة إلى تحريم اللذات الحسية وقمع الغرائز والإشادة بالعزلة عن الحياة وتعذيب الأجساد فكان ما نرى من فلسفة تحتقر كل القيم الأخلاقية والدينية إنما هو : رد فعل للإسراف الذى فرضته القيم التى عرفها المجتمع الغربى ولم تكن فى الحقيقة مستمدة من الرسالات السماوية أو الكتب المنزلة ومن هنا كانت الحملة على هذه القيم وتحطيمها والانفتاح على الحرية المطلقة وتغليب اللذات والشهوات ولكن الإسلام الذى اعترف بالنوازع البشرية فى مختلف جوانب مطالب الجسد المادية وأباح للغرائز المختلفة حرية العمل فى حدود الضوابط التى أقامها والنظم التى وضعها حفاظا لها فإنه غير مطالب باجترار مثل هذه المفاهيم أو الدعوات .

— ٢ —

قضية التطور

ما اظن أن كلمة من الكلمات فى الفكر الحديث شغلت الأذهان مثلما شغلته كلمة « التطور » ، ان التطور ظاهرة طبيعية ولكن هل هو مطلق أم مقيد ، وهل يرى الفكر الاسلامى ان التطور قانون مستقل ام انه مرتبط بقانون آخر هو الثبات

قضية التطور

نشأت فكرة التطور فى مجال الفكر والثقافة نتيجة للخطوات التى اتخذها خلفاء (دارون) الذين نقلوا فكرة التطور من مجال الدراسات البيولوجية إلى مجال الدراسات الاجتماعية . وقد جاءت قوى ذات أهداف معينة فركزت على فكرة التطور وأعلتها إعلاء خطيراً دفعها إلى مجال العقائد الثابتة مع إفرادها بالسلطان على كل القيم والمقدرات الأخلاقية والاجتماعية وكان ذلك جريا مع الاتجاه المادى الخالص الذى يحاول أن يتنكر لكل ما سوى الحس والمادة من قيم .

ومن الحق أن فكرة التطور — المادى والمعنوى لا يمكن أن تسير فى غير نطاق واضح أو إطار محدود ، أو فلك معلوم .

وأن هناك استحالة علمية فى أن تجرى حركة التطور عشوائياً فى غير نظام أو قانون يحكمها .

ومن هنا يبدو الفرق بين رأى العلم وبين آراء الفلاسفة ، ويتكشف الفارق بين الاتجاه العلمى وبين أهواء القوى التى تتخذ

من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى .

والمفهوم العلمى الصحيح هو : أن هناك عناصر ثابتة ، وعناصر يجرى عليها قانون التطور ، وأن تناسقاً يجرى بين عناصر الثبات وعناصر التطور .

وهذا المفهوم العلمى نفسه يطابق مفهوم الإسلام فى نظرية التطور والثبات ، فالفكر الإسلامى يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والتفاصيل والفروع .

* * *

ويستمد الفكر الإسلامى مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذى يحكم الموجودات جميعاً . وعنده أن هناك عنصرين : أحدهما يمثل الثبات والاستقرار ، والآخر يمثل التحول والانتقال ، وأنه لا سبيل إلى إلغاء أحدهما ولا سبيل إلى القول بالتطور المطلق وإنكار عنصر الثبات ولا بد من الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما ، وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل ولا أن يستعلى أحدهما ويسيطر ، فالثبات والاستقرار هو الجمود ، والتطور المستمر

هو الفناء ، وهناك ترابط واضح بين الجمود والحركة ، وبين القديم والجديد ، وبين الميت والحي .

فالحياة ناجمة من موت والجديد منبثق من قديم ، والفكر بعامة يتطور ولكنه يظل ثابت الأصول والمقومات ، والفكر الإسلامي ثابت الجوهر متغير الصورة ، وفي الفقه يجري التطور بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول ، وفي الشريعة أصول ثابتة لا تخضع لقوانين التطور — كالربا والزنا والقتل والصلاة والزكاة والحج — فهذه من القوى الثابتة التي لا تتأثر بالتطور ولا يستطيع التطور مهما بلغ من قوة الحركة أن يقضي عليها أو تختصرها ، أو يحولها عن وجهها الصحيح ، وكذلك في نظام الكون نجد القوى الثابتة ونجد القوى التي تتحول وتتحرك والأصول الثابتة ليست خاضعة للتطور ، هذا هو مفهوم الإسلام وهو مطابق للمفهوم العلمي تماما ولكل مفاهيم العقل والمنطق ، أما المفهوم المطروح في أسواق الفكر الغربي والذي وصل صداه إلى الفكر العربي الإسلامي فهو مفهوم فلسفي خطير لم يقم على أساس علمي وإن أخذ منطلقه من نظرية دارون في التطور البيولوجي ، وعمد إلى نقله إلى ميدان الاجتماع والفكر .

* * *

ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة ، هى واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية التى تحاول أن تسيطر بقوة على الفكر البشرى كله ، وتفرغه من مفاهيم الإيمان والأديان والرسالات السماوية وتدفع به بعيداً إلى نهاية خطيرة يجدها واضحة وضوحاً لامرية فيه لكل من راجع بروتوكولات صهيون أو نصوص التلمود أو اتصل بالمحالاوت التى جرت منذ عصر التنوير فى سبيل إخراج الفكر الغربى المسيحى الأصل من كل القيم ودفعه إلى مجال المادية المغرقة ، وتشكل هذه المحاولة : فلسفة واضحة متكاملة تهدف إلى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق والإيمان بالله ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار ، بتحطيم قيمها ومعنوياتها وتفريغها من كل القوى التى تحملها على التماسك فى وجه الغاية الصهيونية البعيدة المدى وهى السيطرة على العالم ، ولقد كانت نظرية التطور هى المنطلق الخطير للقول بأن كل شىء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله وأنه يبدأ فى أول الأمر ضعيفاً ، ثم ينمو ، ثم جرت محاولة تطبيق ذلك على الأديان والأخلاق ، ومنها انطلقت النظرية التى تقول : بأن الأخلاق تتطور مع العصور ، وأن الأديان تتطور مع البيئات . والقول بهذا مخالف كل المخالفة للحقائق العلمية الصحيحة ، ومعارض لنواميس الكون والحياة .

لقد كان الترويج لمذهب التطور على هذا النحو ، خروجا به من المجال العلمى الصارم إلى المجال الفلسفى الذى لا يخضع لأى سند علمى أو عقلى ، ومن مذهب التطور انطلقت كل المذاهب والدعوات والفلسفات المادية ، فقد اعتبره المتشبثون به قاعدة لعلوم جديدة هى : مقارنة الأديان وتفسير التاريخ والنفس والأخلاق والقوميات والاقتصاد والاجتماع .

ومن هذا أخذت هذه العلوم تخضع للمناهج التى تخضع لها العلوم المادية ، بينما يتناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل .

ولقد كان القول بالتطور المطلق سبيلا إلى نزع القداسة عن الأديان والقوانين والقيم والأخلاق والسخرية منها والدعوة إلى التحلل والإباحية وإنكار مقومات المجتمعات والعقائد على النحو الذى كشفت عنه نظريات « فرويد » و « دوركايم » وغيرها .

ولقد هوجمت نظرية التطور المطلق ، فى المحيط الاجتماعى والفكرى هجوما علميا ، ودحضت بمنطق عقلى واضح ولكن أصوات دعاتها المسرفين فى استغلالها ظلت أعلى الأصوات لأنها لم تكن

أصواتاً طبيعية ، وإنما هى أصوات تدفعها قوى بالغة القدرة فى مجال النشر والإعلان .

* * *

ومن أبرز من دحصوا أخطاء نظرية التطور المطلق : « الدكتور كربس موريسون » الذى أجاب بعد بحث مستفيض على السؤال المطروح :

« أن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذى يتغير هوالصورة فقط » .

ومضى يضرب الأمثلة فى المجالات المختلفة :

— أن نزعة الطعام لم تتطور وإنما الذى تغير هو صورة الطعام .

— أن نزعة اتخاذ المساكن لم تتطور وإنما الذى تغير هو صور البيوت .

— أن نزعة اللباس وستر العورة لم تتطور وإنما الذى تطور هو صورة اللباس .

— أن نزعة القتال والصراع فطرة بشرية لم تتغير وإنما الذى تغير هو صورة القتال .

وقال: إن التطور إنما هو فى الصور والهيئات لا فى الحقائق، لأن الحقائق ثابتة لا تتغير وأن القول بأن « لا شيء ثابت على الإطلاق» نظرية زائفة كما هاجم الكثيرون تطبيق فكرة التطور على الإنسان والقيم .

والمعروف أن الدعوة إلى التطور المطلق قد حمل الدعوة إليها رجال موصومون ، لهم صلة التبعية بالمحافل الماسونية وبذلك فهى من نتاج فكرة السيطرة على العالم وتدميره التى كشفت عنها بروتوكولات حكماء صهيون .

وإذا راجعنا البروتوكول الثانى فإنه يستطيع أن يلقى الأضواء على هذه الاتجاهات : يقول : (لا حظوا أن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل وأن الأثر (غير الأخلاقى) لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد) .

* * *

ولقد جرى كثير من الكتاب وراء بريق نظرية التطور وربما بحسن نية دون أن تتبين لهم أبعاد الخطر من القول بالتطور على

إطلاقه ، بعيداً عن مفهوم الإسلام الجامع دائماً بين التطور والثبات وهو جمع يقوم على أساس علمي صحيح .

ذلك أنه من السذاجة النظر إلى التطور بعيداً عن القيم الثابتة وبمعزل عن الأصول الأساسية لفكرنا ومقدراتنا والدعوة المسمومة إلى التطور إنما تحاول أن تقضي على التراث والقديم ومنها العقائد والأديان والأخلاق .

فالجديد لا يمكن أن يقوم إلا على القديم ، والحاضر ثمرة الماضي والحي يخرج من الميت .

وغاية ما ندعو إليه هو أن لا تقف عند الماضي أو القديم أو الميت وقفة الجمود .

وفي ضوء هذه النظرية لا يمكن القول بتطوير اللغة وتطوير الأذواق ، وهو يعني تطوير الوسائل والأساليب والأطر ، مع الاحتفاظ بجوهر القيم .

* * *

وقد فرق الباحثون المسلمون بين التطور والتطوير وعارضوا القول بأن التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له .

فالتطور يشمل أى تغير يحدث فى أوضاع الجماعة سواء فى اتجاه تقدمى تصاعدى أو فى اتجاه عكسى تنازلى . ثم هو فوق ذلك يبنى على أن دوافع هذا التغيير وعوامله إنما يكون منشؤها ذات الشىء ومردها إلى ما فيه من طاقات طبيعية .

أما التطوير فهو، على عكس ذلك ، يختص أولا بالتغيير التصاعدى الذى يهدف دائماً إلى طلب الكمال والحياة الأفضل ، ويتأثر بدوافع خارجية عن طبيعته ، والقوة الخارجيه هى : القيادات الإصلاحية والدعوات التقدمية[1] .

وهذا يعنى المواءمة بين أصول الفكر الإسلامى بما يقوم عليه من تشريعات وقيم ، وبين ما يتجدد فى المجتمع تحت إلحاح من عوامل التطوير الضرورى فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن هنا أمكن القول بأن التطور لا يمكن أن يكون قانوناً تقدمياً ، أى أن كل طور أفضل من الطور الذى سبقه .

* * *

ومن ناحية أخرى فقد واجه الفكر الإسلامى الأخطاء التى انطوت عليها نظرية التطور ، التى ارتبطت أساساً بالمفهوم المادى

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد بيصار فى كتابه العقائد والأخلاق .

الذى استخلصه الفلاسفة من نظرية دارون ، والذى قام على أساس إنكار وجود الخالق والقول بنشأة الكائنات الحية نشأة طبيعية ، والفكر الإسلامى يثبت الخلق لله لا للطبيعة ، ويقرر وقوع البعث فى الآخرة ، مع الإيمان الكامل بالغيب .

وقد واجهت النظرية من الباحثين المنصفين معارضة فى أغلب جوانبها فقال (كرلس مورلسون) إن نظرية «أن الإنسان أصله قرد» قد كذبها العلم الحديث لما بين النوعين من بعد شاسع ففى الإنسان خواص لا توجد فى القرد منها قدرته على التفكير ، ووجود الوحدات الجماعية من القبيلة ، والأمة ، والحزب ، والدين ، ومنها خواص بيولوجية .

وأنكر (الدكتور والاس) أن يكون الإنسان قد تم على طريقة التطور والارتقاء حيث قال : إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأساً ، وقال (فرجو) إنه قد تبين لنا من الوقائع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره وقال أجاسيز : إن النشوء لا يتم إلا وفقاً لخطة إلهية حكيمة وأن الاصطفاء الطبيعى

إذا ما حل محل الخلق الإلهى فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء .

وأن التفسير الحرفي لنظرية داروين يفسح المجال لتأليه سوبرمان نيتشه وتمجيد القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس .

* * *

« إن الفكرة التى يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطيا يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة » . وأكد الباحثون أن داروين لم يورد ضمن نظريته أن الإنسان يرجع فى أصله إلى القرد وأن الذين زعموا ذلك هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب داروين لشهرته العلمية ونفى هكسلى تلميذ داروين : أن الإنسان قد انحدر من القرود وأن الإجماع بين العلماء — لا الفلاسفة — على أن الحياة لم تحدث مصادفة وأنها حدثت بقدرة الله وإرادته .

وهكذا ينكشف هدف تزييف النظرية وسوقها إلى الغاية التى يريدها الماديون وعلى رأسهم (لامارك) وهيكل الذى دعا إلى تأليه الطبيعة ومن ثم إنتقلت إلى مجال الاجتماع والفكر على أيدى هربرت

الذى حاول تطبيق نظرية التطور على العالم كله وتحويلها من النظرية الإحيائية إلى نظرية اجتماعية .

ثم جاء الدكتور شبلى شميل فى مصر فحمل لواء هذه الدعوة وترجم كتاب (بختر) الذى يعد من غلاة الماديين وحاول أن يطبق نظرية التطور فى مجال الفكر والاجتماع ، وقد عارضه علماء الدراسات الطبيعية أنفسهم من أمثال يعقوب صروف وغيره ولم يكن شبلى شميل متخصصاً أصلا فى هذه الدراسات بل كان طبيباً .

وقد راجت هذه النظرية فترة وإن وجدت المعارضة والنبذ منذ اليوم الأول من العلماء المتخصصين أنفسهم ، ثم لم تلبث أن سقطت ورفضها الفكر الإسلامى ، وعجز دعاة المادية عن أن يجدوا لهم دليلا علميا يؤكدون به موقفهم .

* * *

ولقد أكد الفكر الإسلامى أن التطور الذى التمسته المذاهب الفلسفية المادية بمعنى إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذى يصل إلى الإلحاد والإباحية ليس من مفهوم الإسلام ولا هو متقبل من الفكر الإسلامى وأن هذا النحو من الفهم إنما قام فى الغرب

سبنسر فى ظروف محلية خاصة وليس له قيمة حقيقة فى مجال القيم الإنسانية .

ولقد دارت مناقشات متعددة حول التطور والثبات ، بافتراض أن هناك تناقض حتمى بينهما ، والواقع أن الثبات يبدو نظريا نقيض التطور والحركة ، ولكننا إذا أنعمنا النظر من الناحية العقلية والعلمية وجدنا أن للتطور والحركة ضوابط ، هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة باعتبار المقومات والدوافع الأساسية للحركة والتطور ، فالقطار والسيارة والطائرة والصاروخ كلها أجسام متحركة ولكنها فى نفس الوقت محكمة الصنع بضوابط ثابتة تنظم حركتها وتيسر اندفاعها باستمرار ولولا هذه الضوابط الثابتة لكانت الحركة عشوائية أقرب إلى الفوضى ، ولما تولدت الحركة قط .

فالقطار يخرج عن مساره إذا أهملت صيانته واختلطت ضوابطه وفقد أحكام صنعه ، والصاروخ ينفجر فى قاعدته إذا اختلت هذه الضوابط .

كذلك المجتمع الإنسانى، فهو مجتمع دائب الحركة والتطور ولكن هناك ضوابط أساسية ثابتة تنظم حركته وتحكم اتجاهه ومن هنا يتقرر أن التطور ليس قانوناً أخلاقياً وليس كل طور أفضل من

الطور الذى سبقه بل التطور قانون اجتماعى واقعى ولا يقتضى مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة وأن الفكر الإسلامى ثابت الجوهر متطور الصور ، وقد أعطى الإسلام مبادىء ثابتة وترك للناس القدرة على التحرك من خلال الفروع والتفاصيل وأقام قيما أساسية لا سبيل إلى تطورها أو الخروج عنها وهى أشبه بالعُمُد فى البناء .

- ٣ -

قضية الحرية

« الحرية » مصطلح حديث ، ولكن هل هو من الكلمات التى يتشابه مفهومها وتفسيرها بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى. ما هو مفهوم الاسلام للحريه ، وهل يقر الاسلام اطلاق الحرية أم يضع لها الضوابط . وما هو مفهوم الحرية فى بروتوكولات صهيون ؟

قضية الحرية

من المصلحات التى استطارت فى العصر الحديث كلمة « الحرية »
وهى كلمة عذبة محببة إلى النفوس ترجع جذورها البعيدة إلى الأديان
والرسالات السماوية فى إطارها الصحيح القائم ؛ على الجمع بين الحرية
والمسئولية ، وقد أولى العرب والمسلمون هذه الكلمة فى العصر
الحديث اهتماماً كبيراً فى مواجهة حركتهم نحو مقاومة الاستعمار
والنفوذ الأجنبي والاحتلال الذى كان يسيطر على أراضيهم ومقدراتهم ،
وأصبحت هذه الكلمة مرادفة للوطنية ، وشعاراً للمقاومة ، وسلاحا
فى وجه الغاصب والظالم وفى وجه الاحتلال والاستبداد ، وفى وجه كل
طغيان ، وكانت الثورات المختلفة التى قامت تتخذ من « الحرية » علما
لها وشعاراً .

* * *

غير أن كلمة الحرية لم تلبث أن بدت على أقلام بعض الكتاب
ومن خلال بعض النظريات والفلسفات والدعوات الأجنبية وهى تحمل
صورة أخرى تختلف اختلافا واضحا عن هذا المفهوم ، بل وتتعارض

معه أحيانا ، وذلك حين ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى الحرية المطلقة فى مجال الاجتماع والفكر والسلوك . وصاحبها القول برفع القيد على كل إنسان ليمارس مايشاء من شئون ، دون تقدير واضح للمسؤلية أو التبعية أو حدود مايملك الآخرون ، واتسع نطاق هذه الدعوة الضارة المستحدثة إلى القول بحرية التربية وحرية العلاقات بين الجنسين وحرية الفنان والكاتب ودخل زيف كثير على هذه العبارة ذات التاريخ المجيد فى مقاومة الظلم والاستعمار والاستبداد .

وجرى كثير من الكتاب والمثقفين وراء البريق ، وخدعتهم الكلمات التى تهز الحس ، وتحرك الغرائز وتدعو إلى الانطلاق من كل قيد ، دون أن يقدر هؤلاء جميعا مدى الأخطار التى تتعرض لها الأمم والشعوب ، ومدى الآثار والنتائج التى تترتب على الدعوة الضارة .

ولاشك أن من وراء هذا الانحراف فى فهم الحرية ، وهذه الدعوة إلى إطلاقها الاندفاع بها لتدمير قيم النفس والأخلاق ، ولاشك أن من وراء ذلك خلفية خطيرة ، وهدف مسبق ومحاولة مسمومة تستهدف تدمير قوى الأمم وشبابها ومقدراتها . وحين نرجع إلى بروتولات حكماء

صهيون نجد إشارة واضحة إلى سلاح « الحرية » « والتحررية » فى تحقيق الغاية الخطيرة التى تستهدفها الصهيونية العالمية .

* * *

يقول البروتوكول الأول : [كنا نحن أول من نادى فى جماهير الشعب بكلمات « الحرية والعدالة والمساواة » وهى كلمات لم تزل تردد إلى اليوم ويرددها من هم بالببغاوات أشبه ، ينقضون على طعم الشرك من كل جو وسماء ، فأفسدوا على العالم رفاهيته كما أفسدوا على الفرد حريته الحقيقية وكانت من قبل فى حرز من عبث الدهماء] .

ويقول [وفى جميع جنبات الدنيا كان من شأن كلمات (حرية — عدالة — مساواة) ، أن اجتذبت إلى صفوفنا على يد دعاتنا وعملائنا المسخرين، من لا يحصيهم عد ، من الذين رفعوا رايتنا بالهتاف وكانت هذه الكلمات هى السوس الذى ينخر فى رفاهية الأميين (أى غير اليهود) ويقتلع الأمن والراحة من ربوعهم ويذهب بالهدوء ويسلبهم روح التضامن] .

وقد أعطت التظريات الفلسفية التى صاغها الداثرون فى تلك الصهيونية للتحررية معنى يتسق مع الدعوات التى حمل لواءها فرويد ،

وسارتر ، وغيره وهى (انسلاخ الفرد من كل ماتواضع عليه المجتمع من آداب وقوانين فى رغباته وشهواته[1]) .

ويمكن رد كلمة « الحرية » فى تطورها الفلسفى الغربى إلى الثورة الفرنسية ، التى قادها رجال المحافل الماسونية من أجل تحطيم القيود التى كانت تفرضها المجتمعات الأوربية على اليهود من حيث التعامل والإقامة والعبادات وغيرها .

* * *

ثم كانت هذه الكلمة من بعد ذلك منطلقا لمذهب سياسى واقتصادى اتسمت به الرأسمالية الغربية هى مذهب الليبراليه ، أو الحريين كما كان يطلق عليهم ناقلوا هذا المذهب إلى الفكر الإسلامى العربى ويقوم هذا المذهب على ماتقوم عليه الأنظمة الديمقراطية الغربية : ويؤمن الليبراليون بالفردية ، فالفرد هو العنصر الأساسى فى الاقتصاد ويدعون إلى توافر أقصى حد للحرية الفردية ، وقد جاءت دعوة ماركس ونظريات الإجتماعيين من بعد كرد فعل للنظرية الفردية ، وأعلوا من شأن الجماعة والمجتمع ، وقد حاول الاحتلال أن ينقل إلى العالم الإسلامى هذه الأنظمة الليبرالية الغربية فأخفقت كثيراً فى معظم

(١) راجع محمد خليفه التونسى .
(٢) بروتوكولات حكماء صهيون .

البلاد التي طبقت فيها وظهر الخلاف الواضح بين مفاهيم الإسلام السياسية وبين مفاهيم الليبرالية الغربية التي فرضها النفوذ الأجنبي باسم الاحتلال .

وكان من الطبيعي أن تفشل هذه الأنظمة لأنها لا تمثل المزاج النفسي والاجتماعي للمسلمين والعرب ولا تنبع من قيمهم وعقائدهم وذاتيتهم .

وكذلك جرت الدعوة إلى الحرية في الفن والأدب وارتفعت أصوات بالدعوة إلى حرية الفكر ، وصدرت في الثلاثينات مجلة تحت اسم العصور كانت تكتب على غلافها هذه العبارة :

[حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لا تجد صعوبة ما في رفض أي رأي من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، اطمأنت إليه نفسك ، وسكن إليه عقلك ، إذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه] .

وكانت هذه دعوة إلى دحض الأديان والعقائد والقيم ، وهي تبدو في موعدها وأهدافها وأسلوبها جارية مع النصوص التي نقلناها من بروتوكولات صهيون . فقد اتخذت الصهيونية الدعوة إلى الحرية

سلاحاً لها لتدمير كل العقائد والقيم التى جاءت بها الأديان السماوية وتحت اسم (التقاليد والأساطير الموروثة) .

وما تزال هذه العبارات تجرى إلى اليوم على أقلام دعاة التغريب منذ أن رددها داعية المادية والإلحاد : الدكتور شبلى شميل قبل أكثر من تسعين عاما ، وحمل لواءها الكثيرون تحت أسماء مختلفة منها : الدعوة إلى التسامح ، والدعوة إلى حرية الفكر ، والدعوة إلى التقدم ، وكانت كل العبارات المسوقة من [رجعية وتأخر وجمود وتعصب] ، إنما تعنى كلمة [الدين] دون أن تستطيع التصريح بها

* * *

وكان الهدف الأساسى هو خلق «ثقافة عربية» تقوم على أساس الفكر الغربى منعزلة عن الفكر الإسلامى وقيم القرآن والإسلام والشريعة الإسلامية ، وذلك كمقدمة للانصهار فى الفكر الغربى ، وفقدان الذاتية والشخصية الإسلامية العربية .

ونحن حين نرجع إلى مفهوم (الحرية) فى الإسلام نجد وضوحاً وتكاملا وسماحة لا تصل إليها مفاهيم الفلسفات التى تصدت للحرية منذ جون ستوارت ميل ، إلى سارتر . فالحرية فى الإسلام هى :

التحرر من قيود الوثنية ، واستعباد الإنسان للإنسان ، وهى ضد عبودية (الأوثان، وضد الرق ، وضد العبودية لأى كائن كان ، وهى حرية الفرد وحرية الجماعة .

وهى حرية الكلمة وحرية الضمير تجمعها آية واحدة من القرآن: [لا إكراه فى الدين[1]] فهى حرية الاعتقاد والقول والتفكير .

وكما دعا الإسلام إلى (تحرير الفكر) دعا إلى تحرير الجسم ، فالإسلام هو أول صيحة لمحاربة الرق وحصره فى أضيق نطاق كمقدمة لتصفيته ، والحرية السياسية واحدة من حريات الإسلام وتقوم على الشورى ، غير أن الإسلام يعطى للحرية ضوابطها وتحفظاتها التى تضمن حرية الغير ، فالإسلام حين يقرر إطلاق الحريات للأفراد فإنه من ناحية أخرى يشترط ألا يكون فى ذلك طغيان على حريات الآخرين أو إضرار بمصالح الجماعة :

***

وحرية العقيدة حيث لا إكراه فى الدين إنما تعنى كفالة الإسلام لحرية عقائد أهل الكتاب . ويدعو الإسلام إلى الحرية من كل

---

(١) آية ٢٥٦ سورة البقرة .

القيود ، قيود العبودية الفكرية والجسدية ، كما يدعو إلى حرية الإنسان من قيد الجهل والخرافة ، ويدعو إلى حرية المرأة فى التعليم ومفهوم الإسلام هذا أوسع أفقا ، وأبعد مدى من مفاهيم الحرية لدى فلاسفة الاجتماعيين والليبراليين على السواء .

ويصل الإسلام إلى الغاية فى تقرير الحرية حين لا يبقى الإنسان عبداً لشهواته وأهوائه أو عبداً لغير الله فلا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق ويأنف أن يكون عبداً لإنسان مثله ، فلا يقبل الذل لمن هو مثله ، ويأنف من الإحساس بأن الرجل أقل من سواه .

فلا فرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير والأبيض والأسود إلا بالتقوى والعمل .

وقد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام فى حرية الفكر ، وكيف أطلق العقل الإنسانى من قيوده ، ودفعه إلى الخروج من آثار الوثنية : يقول : « بارتلمى سانهلير » :

« إن الإسلام قد أحدث رقيًا عظيماً جداً فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ثم إنه بتحريمه الصور فى المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص

الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى واضطر العالم لأن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه » .

وأشار جوستاف لوبون فى مقارنة بين الإسلام وبين غيره فقال :

[إن الإسلام هو الذى علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين « وقد كان يظن أنهما لا يجتمعا] .

بل لقد كانت حرية الفكر فى الإسلام واضحة وضوحا لا حد له فى كل الأعمال التى تتناول الأديان الأخرى ، وكان مبدأ « الإنصاف » واضحاً فى هذا المجال .

وقد أشار [هاملتون] إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنات الأديان فقال :

العرب هم أول من ألفوا فى الملل والنحل لأنهم كانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام عن ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم بالنصيب الأوفر .

« وقد كتب أبو الريحان البيرونى فى أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان إذا كتب

عن نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة ، لتلطفه فى وصف شعائرها .

وكان كتاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرمة وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وطبقات الحكماء لابن القفطى وطبقات الأدباء لياقوت والوافى بالوفيات للصفدى ، وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى أمثلة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة] .

ننقل هذا عن مستشرق لنقارن به مايقوله عالم غربى آخر يصف موقف قومه من الأمم الأخرى ذلك هو جوستاف لوبون الذى يقول :

« إن حرية الفكر فى الغرب تختفى لدى الأوربى عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الإسلامى فالمفهوم الصليبى العميق الأثر فى النفس الأوربية يحول دون حرية الرأى إذا كان موضوع البحث هو الإسلام » .

* * *

وقد تأكدت هذه النزعة على أسنة أقلام كثير من الباحثين الذين ردوها إلى طابع الاستعلاء الغربى الذى لايعترف بالإنصاف

أو الفضل لغير ذوى الأجناس البيضاء وهى نزعة قديمة عرفتها روما حين قال حكيمها [روما سادة وما حولها عبيد] .

ولقد أفسح الإسلام فى تاريخه الطويل للملل والنحل باب السجال والجدل والمناقشة ، وسمح بعض الخلفاء بذلك فى مجالسهم ولم تكن دعوتهم إلى حقهم إلا عن طريق البرهان والإقناع ، مع السماحة للمخالف بينما لم تحتمل أوربا مثل هذا السجال فكانت من آثاره معارك عنيفة مثل معركة سانت بارتلمى وغيرها .

وقد كان مفهوم حرية الفكر فى الإسلام واضحاً صريحاً : لم يقبل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق أو التحرر من القيم ، أو اتهام الموروثات بالزيف ولكن دعا إلى البرهان والعقل لحرر الإنسان أولا من رق التقليد الأعمى ورباه على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، ودعاه إلى التخلص من عبادة الأهواء وطالبه بالدليل ، ونعى عليه الجهل والظلم والمتابعة بغير إقناع ، فهى حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل وتقوم على قواعد النظر والاستدلال بعيداً عن الأهواء والأوهام .

وهى تختلف اختلافاً واضحاً عما دعا إليه الماديون والغربيون الذين يدعون الناس اليوم إلى التحرر من الأساطير الموروثة

وهم يعنون بها الإسلام ، وإلاّ فأين هذه الأساطير الموروثة اليوم؟ وقد فصل الإسلام بينها وبيننا بأربعة عشر قرناً حين جاء القرآن بالحجة الواضحة وزيف كل دعوى الوثنية والمادية والإباحية مما كان قبله .

* * *

وفى هذا المجال نذكر تلك الشبهات المسمومة التى حاول خصوم الإسلام طرحها حين قالوا بأن دماء سفكت واضطهاداً وقع لبعض أعلام الفكر فى الإسلام من أجل فكرهم والحق أن الإسلام لم يضطهد مفكراً لفكره ، وإنما جاء القصاص حين وصل الأمر إلى حدود التآمر والاتصال بخصوم الدولة الإسلامية وإن كثيراً ممن وصفوا بأنهم قتلوا ،عاشوا أحراراً لم تمسهم يد على الرغم مما كانوا يصدرون عنه من هرطقة وضلال ، حتى ثبت عليهم بالدليل مراسلتهم لدولة أجنبية ، واتصالهم بالقرامطة والحشاشين أو غيرهم .

ولقد قال أبو العلاء المعرى وابن الراوندى وأبو بكر الرازى وغيرهم ما لم يقل مثله فولتير وروسو ، دون أن يصيبهم أذى ، ولم يرد فى التاريخ الإسلامى من علماء حرقوا من أجل معتقداتهم كما فعلت أوربا فى ديوان التفتيش .

— ٤ —

قضية العقل

لامشاحة أن « العقل » مصطلح معترف به فى كل فكر وفلسفة ولكن هناك فوارق عميقة بين مفهومه فى الفكر الاسلامى وبين مفهومه فى كل فكر وفلسفة • ما هو مفهوم نظرية المعرفة الاسلامية ذات الجناحين : القائمة على العقل والوجدان، وما وجه الخلاف بينها • وبين نظرية الشرق القائمة على الاشراق والحدس ونظرية الغرب القائمة على المادية والمحسوس وحده !

قضية العقل

من أهم القضايا التى تثار فى مجال الفكر الحديث [قضية العقل] ولقد كانت الدعوة إلى تحكيم العقل وإعلاء العقل من الدعوات التى غذاها الفكر الغربى الحديث ، وهو اتجاه على صحيح ، إذا جرى وفق منهج المعرفة الإنسانية الجامع بين العقل والقلب .

ولقد قدم الإسلام للإنسانية هذا المنهج الجامع الشامل ، ليحقق به أصول المعرفة الحقة ، بعيدة عن قصور المناهج العقلية الخالصة أو المناهج التى تعتمد على الوجدان والقلب .

فقد تنازعت الفكر البشرى دعوتان : إحداهما تقول بالعقل وحده ، والأخرى تقول بالوجدان ، ثم جاء الإسلام ليقرر بأن منهج الفكر والمعرفة الصحيح الكامل هو المنهج الجامع للعقل والقلب معا .

وقد اعتمد منهج العقل على العلم وعلى المحسوس وعلى الماديات وعلى كل ما يدخل فى بوتقة المعامل ، وأغضى إغضاء تاما عن عالم الغيب (الميتافيزيقيا) إغضاءا تاما وأنكره إنكارا كاملا ، وبذلك تجاهل فى الحقيقة جانبا كبيرا من المعرفة لا سبيل إلى فهم الحياة فهما صحيحا دون الاعتراف به .

وجاء الوجدانيون بعض دعاة الصوفية والإلهام والاستشراق وغيرهم فقرروا أنه لا سبيل إلى فهم الحياة والوجود إلا عن طريق القلب وحده وأنكروا مكانة العقل.

وظهرت مذاهب فلسفية تؤيد هذا الاتجاه ، ومذاهب أخرى تؤيد ذلك الاتجاه ، وعند النظرة الصحيحة نجد أن كلا من النظريتين عاجزة عن بلوغ أصول المعرفة الحقة .

* * *

ولقد جرى الفكر الإسلامى طورا مع هذا الاتجاه ، ومرة مع الاتجاه الآخر ، وفى كلا الأمرين كان مجانبا لمنهجه الأصيل ، ومفهومه الكامل ، ذلك أن أبرز ما يتمثل به الفكر الإسلامى هو كمال النظرة وشمولها وجماعها .

والعقل أداة من أدوات المعرفة لها مجالها وميدانها وطريقها الذى استطاعت أن تنطلق فيه وفى حدود هذه المقدرة استطاع أن يقدم الكثير ، غير أن هناك ميادين عجز عن اقتحامها ، ومناطق لا تؤهله قدراته على اختراقها وقضايا لا يستطيع الحكم فيها .

هذا الجانب هو عالم الغيب الذى صوره الحق تبارك وتعالى

فى القرآن وأمدنا بحقيقته عن طريق الوحى ، وأمرنا أن نؤمن به ، فالعقل يقبله ولكنه لا يستطيع وحده أن يصل إلى الحكم فيه لأن أداته ليست مؤهلة لهذا الغرض فالعقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء فى جميع المعضلات .

والعقل فى حقيقته نور فى القلب ومهمته أن يعرف الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والحسن من القبيح ، فى ضوء الوحى ، وليس خارجه ، ومن هنا كان خطر الدعوة المثارة إلى تمجيد العقل ، وتأليه العقل ، وإعلاء العقل واعتباره سبيلا وحيدا فى البحث أو الحكم على الأشياء ، وهو من الدعاوى التى يحمل لواءها دعاة المادية ويهدفون بها إلى هدم عالم كامل هو عالم الميتافيزيقا .

أما فى الإسلام فإن هناك ترابطا بين العقل والوحى أو العقل والقلب ، والعقل وحده لم يستطع أن يصل بالذين اعتمدوا عليه إلى معرفة كل الحقيقة وأدى إلى انحرافهم وكذلك أخطأ الذين نحوا العقل والتمسوا المعرفة الباطنة عن طريق المذاهب الإشراقية أو غيرها .

* * *

ومن هنا جاء اكتمال النظرية الإسلامية للمعرفة جامعة بين العقل والقلب ، جامعة بين عالمي الغيب والشهادة .

ولا شك أن العقل له مجاله في ميدان العلوم والتجريب وآفاق الكيمياء والتكنولوجيا وغيرها ، وقد كان له دوره الضخم الذى استطاع به المسلمون بناء المنهج العلمي التجريبي حين تخطوا المرحلة النظرية التي وقفت عنها دراسات الفلاسفة قبل الإسلام .

وقد كانت نظرية المعرفة الإسلامية الجامعة بين العقل والقلب مصدر النصر الذى حققه المسلمون حين وصلوا إلى قاعدة لم يسبقهم إليها سابق وهي قاعدة [جرب واحكم] في مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء .

ومن هنا سار العقل والقلب في الفكر الإسلامي في إطار واحد، دون أن يقع بينهم ذلك الصدام الذى عرفه الفكر الغربي ودون أن تتمزق الجبهة الواحدة إلى جبهتين ، على النحو الذى نراه في التفرقة الغربية بين العلم والدين .

ولقد أكد العلماء المسلمون القاعدة التي وضعها النبي حين قال (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه[1]) .

---

(١) هذا الحديث مما جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

فكان ذلك دعوة إلى التمحيص والإقناع ، وهى التى أوصلت المسلمين إلى إجراء التجربة .

وقد أقام المسلمون تجاربهم العقلية والعلمية تحت راية الوحى وفى ظلال مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب والروح والمادة .

ومن هنا كان منطق المسلمين فى الترابط بين العلم والدين واضحا ، فالأصل فى العلم : العقل ورائده التجربة الحسية ، ومن ثم فالعلم يمتد فى مجال واسع ، ويحقق فيه انتصارات ضخمة ، ولكنه يقصر عن إدراك سائر حقائق الكون وخاصة عالم الغيب والعلم فى مفهوم الإسلام يأمر أهله أن لا يعادُوا ما يجهلون من الحقائق وأنهم فى جانب الغيب لهم منهجهم فى الإيمان به عن طريق القلب المصدق فى الوحى ، والعقل شاهد ومقرر .

* *

والإسلام صديق للعلم بما تضمنه القرآن من نصوص تحض على طلب العلم والتمرس به وليس للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شىء ليس من مفهوم بحثه ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته

التجريبية الحسية وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهى البحث والاستطلاع والملاحظة للظواهر الطبيعية ، ولا يقول بالنفى أو الإثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر وما يقرره علماء المعامل يؤكد عجز العلم وبالتالى العقل عن أن يكون قادرا على الإحاطة الكاملة أو الفهم المستقل للكون والحياة .

ويقول العلامة « كرلسون » : إن العلم لا يعطينا فى مجموعه إلا معارف مبهمة للغاية ، وذلك من جهة العلل الخفية التى لا تتعلق بها تجاربه . وقد قرر العلماء فى شبه رأى موحد على أن العلم يعجز عن أن يفسر ظواهر الأشياء أو يعللها ولكن يصفها ويقررها ، ومهمة العلم فى تقديرهم قاصرة على وصف الظواهر وتقريرها لا تعليلها ، وقد كان فى أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ومن ثم رجعوا فى تواضع إلى إقرار الحقيقة فالعلم عندهم لا يفسر شيئا وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالى يصف ويقرر وليس هذا فهما للأشياء

ولكنه تعرف عليها ويقرر العلماء الآن أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة، وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة، لاكتشاف قوانينها، والعلم يعترف الآن بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس، ولذلك فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئا.

وهم يقررون أيضاً أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا أبدية، وإنما هي حقائق نسبية والبحث العلمي في صراع لا ينتهي بين الإنسان والطبيعة، فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها وما زال العلماء يتساءلون هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة؟ لقد قطع العقل أشواطا بعيدة خلال ثلاثمائة سنة فهل استطاع التوصل إلى الحقيقة؟.

ومعنى هذا أن العلم رغم تقدمه لم يستطع بعد أن يحل المشاكل الكبرى المتمثلة في أصل الكون ونهايته وطبيعته المادية ومنشأ الحياة وخلود الروح.

ومعنى هذا أن العقل جهاز له مقدرته المحدودة وطاقته التي تقف به على أبواب عالم الغيب. وهذا قرار العلماء العمليين الحاسم

الواضح ، فلماذا إذن يسرف الفلاسفة وحملة لواء المادية والوثنية وخصوم الأديان فى الدعوة إلى العقل وإلى إعلاء العقل وإلى اعتباره الواسطة الوحيدة للمعرفة الإنسانية الكاملة ؟ »

الحق أن هؤلاء الذين يحملون هذه الدعوة ليسوا بعلماء وما يقولونه ليس علما ، وإنما هو فلسفة تدخل فى نطاق واضح هو نطاق المادية التى حددت موقفها مسبقا من الله والعالم الآخر والنبوة والرسالات السماوية التى لا سبيل إلى أن نقتنع بها .

— ٥ —

قضية التقدم

ماهو مفهوم « التقدم » فى الفكر الاسلامى ، وماوجه الخلاف بينه وبين مفهوم التقدم فى الفكر الغربى وهل التقدم مادى خالص أم أنه تقدم شامل : مادى وروحي ونفسى واجتماعى ٠

وهل تستطيع الحضارة أن تحقق للانسان هناءه وهى تقصر مفهومها على التقدم المادى وحده ؟!

قضية التقدم

إن كلمة (التقدم) اليوم من الكلمات البارزة التى تكاد تطبع العصر كله بطابعها وقد استلفت القول أن استعمالها إنما يعنى دائماً نوعاً واحداً من التقدم :

هو التقدم فى مجالات الحضارة ووسائل العيش وأساليب الحياة، والجوانب الاقتصادية والعلمية أى التقدم المادى وحده .

وهو تقدم مطلق غير محدود ، يرى أن لا تقف أى حواجز دونه ، أو معوقات فى سبيله وهو يهدف عادة فيما يرمى إليه القائلون بهذا المصطلح ومرددوه : ما يسمى بالرفاهية .

ولا شك أن التقدم قانون أصيل فى تاريخ الإنسان ولكنه لايقف عند الجانب المادى وحده ولا يفترض الإغضاء عن قيم كثيرة فى سبيل اندفاعه إلى آخر المدى .

وترى النظرية الغربية فى التقدم أن حركة نشأت مع الثورة الصناعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأنه مرتبط بنظرية التطور ، وأنه لذلك يقدم على أساس مادى ، وجوهره هو سيطرة الإنسان على الضرورات الإنتاجية والسيطرة على الطبيعة .

وأنه بهذا المفهوم يحقق للمجتمع البشرى السعادة والحرية ،

وتختلف النظرية الإسلامية فى مفهوم التقدم عن النظرية الغربية فى مفهوم التقدم نفسه . فمفهوم التقدم فى الإسلام يدفع الإنسان دائماً إلى أمام ويؤكد القيم الإنسانية العليا الثابتة وأنه [وهذا هو الجانب الأهم والأكبر] يعنى التقدم المادى والروحى معاً ، وأنه لا يضحى الجانب الروحى فى سبيل المادى ولا يعلى من شأن الجانب المادى وحده أو يفرده بالاهتمام .

* * *

فالتقدم فى مفهوم الإسلام : نفسى ومعنوى ومادى ، وسياسى واقتصادى واجتماعى ، وفى كل مجال التقدم المادى يكون هذا التقدم مشروطاً بالقيم الأساسية والأخلاقية بغير إذلال للخلق ، إيماناً بأن الحوافز المعنوية تعطى التقدم المادى قيما عليا .

وقد علت أصوات ظالمة تحاول أن تقنع المسلمين والعرب بأن الدين (أى الإسلام بمفهومه ديناً ونظام مجتمع) معوق عن التقدم ومانع من النهضة وأن على المسلمين والعرب إذا أرادوا التقدم أن ينفصلوا عنه ، ولا ريب أن تلك الأصوات ليست صادقة فى دعوتها وأيضاً ليست صادقة من الوجهة العلمية الصحيحة ، وذلك أن خروج

أمة من مقدراتها وقيمها ومزاجها النفسى لن يكون بحال من الأحوال عاملا من عوامل تقدمها وإنما يكون عامل استعبادها وإذلالها وانصهارها فى بوتقة النفوذ الاستعمارى الواسع الذى يريد أن يحتويها ويذيبها .

* * *

لقد كانت الدعوة إلى إعلاء مفهوم التقدم المادى فى عالم الإسلام والعرب بالتخلص من عوامل التقدم المعنوى أو بتحرير التقدم المادى من الضوابط الأخلاقية وعوامل التقوى والإيمان ، مؤامرة ضخمة حتى يصبح العرب والمسلمون للاستعمار أساس قياداً ولينصهروا فى بوتقة العالمية فتضيع شخصيتهم وتنمحى طوابعهم ، وهى دعوة مضللة زائفة وليست صادقة لأن أوربا لم تفعل ذلك ، لقد عادت أوربا إلى جذورها وقيمها اليونانية والرومانية حين اندفعت تبحث عن أسباب التقدم .

وإذا كانت أوربا ، أو الغرب عامة قد انفصل عن الدين فذلك لأنه اعتبر المسيحية دخيلة عليه ووافدة وأن تشكيله النفسى كان قائماً من خلال الفلسفة اليونانية والأنظمة الرومانية أما فى عالم الإسلام والعروبة فإن الأمر يختلف ، فإن هذه الأمة قد تشكلت قبل أربعة عشر قرناً والإسلام جزء من كيانها :

من حيث هو دين وعبادة للمسلمين ، ومن حيث هو نظام وثقافة ومنهج حياة المسلمين وغيرهم ، ولأهل هذه البقعة جميعاً .

* * *

ولا يمكن لأمه تشكلت والدين جزء منها فكان عميق الأثر فى كيانها العضوى وقد صاغ مزاجها النفسى وذاتيتها ، أن تخلص منه من بعد إلا إذا أعيد تشكيل هذه الأمة من جديد ، ولأمر ما نزلت الأديان الثلاثة الكبرى فى هذه المنطقة .

ولذلك فإن محاولة إخراج المسلمين والعرب من الدين بعامة أو الإسلام خاصه إنما هى تجربة مستحيلة ومضادة لاتجاه التاريخ ومعارضة لروح التقدم ومخالفة لما انطبع عليه مزاج المسلمين وذوقهم وما تشكل عليه أدبهم وفنهم ومناهج الحياة فى مجتمعهم .

هذا من ناحية ؛ ومن الناحية الأخرى فإن الإسلام — مخالفاً لغيره مخالفة تامة لم يكن عامل تأخير أو جمود بله عامل تقدم ، وليس الإسلام هو الذى وقف ويقف أمام تقدم العلم أو تطور المجتمعات أو نهضة الأمم لأنه كان بطبيعته المصدر الأول بالبحث العلمى والمنشىء الأساسى للمذهب العلمى التجريبى الحديث ، بل إن الحضارة الإسلامية التى أقامها إنما كانت نتاج الإيمان بالله وتحقيق دعوة الله الداعية إلى النظر فى الآفاق واستطلاع أسباب القوة والعمارة فى الأرض .

وقد أكدت كل الأحداث التاريخية والدراسات العلمية أن الإسلام قادر على إعطاء طابع الحركة والبناء فى مجال التقدم فى ظل مفهومه الجامع المتكامل :

مفهوم التقدم على جميع الجبهات ، دون إعلاء الجانب المادى وحده أو تضحية الجانب المعنوى من أجل الجوانب الأخرى ، ومن هنا فقد سقطت النظرية الوافدة التى حملها كثير من الكتاب والتى كانت تدعو إلى تبرير مفهوم التقدم الغربى ، هذا المفهوم المسموم الذى يفتح الباب لذوبان المسلمين وملاشاة شخصيتهم .

ولقد حاول بعض الباحثين تقرير نقطة الخلاف بين مفهوم التقدم فى الإسلام ومفهوم التقدم فى الغرب فقد أشار العلامة (مسمر) الفرنسى إلى ذلك حين قال :

إن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين ، أما فى دين الإسلام فالعكس من ذلك أنه — أى الدين الإسلامى — لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم ، فإن بين الإسلام والعلوم رابطة كلية ، والغربى إذا صار عالماً ترك دينه ، أما المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلا ، وبأى وجه يمكن نسبة التقدم الحالى فى الغرب إلى الدين ، والحال أنه ماجاء إلا بعد خمسة عشر

قرناً من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبة تأخر المسلمين الحالى إلى دينهم ، وفى عام ٧٤٢ م أى بعد مائة وإحدى عشرة سنة من وفاة (محمد) عليه الصلاة والسلام كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدونى ، وفى عام ١٥٦٦ م عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين ، ومن هذا يظهر أن عظمة الإسلام امتدت ألف عام وكل من يعرف أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتجديد .

* * *

وقد أشار إلى مفهوم التقدم وارتباطه بالاسلام العلامة جوستاف لوبون حين قال للشباب العربى والمسلم ممن زاروه فى منزله بباريس فى أوائل هذا القرن [أن السبب فى انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة وأن قوة الدين قوة أدبية ، كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه ، وأن العلوم الحديثة لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بدينهم ولم تنفصل عنه اهـ .

وإذا وصف المسلمون فى العصور الأخيرة بالتخلف ، فليس هناك من دليل علمى يؤكد أن الإسلام كان مصدر هذا التخلف بينما هناك عشرات الأدلة العلمية على أن هذا التخلف كان مصدره انحراف

المسلمين عن الإسلام فى مناهج حياتهم الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها .

وتكذب كل الوقائع ما يذهب إليه كتاب الاستعمار ودعاة التغريب وخصوم العرب والمسلمين من أن التخلف فى العالم الإسلامى إنما يعود إلى جوهر الإسلام الداعى إلى التقدم والنهضة والذى حين طبق تطبيقاً صحيحاً بهر الدنيا بما قدم لها من آيات العلم والفن ، وما شكلت حضارته من حياة كانت غاية فى السماحة والحيوية والإنتاج والبناء فى شتى المجالات في الحياة .

* * *

وقد ارتبط تخلف المسلمين تاريخياً بالتخلى عن أصول الإسلام ومفاهيمه والانحراف عن طابعه وجوهره والتماس أساليب وافدة لم تزد المسلمين إلا تأخراً وجموداً .

إن الأسلوب الذى اتخذه قادة المسلمين فى تدبير شئون الدولة وبناء الحضارة من شأنه أن ينقض مزاعم الذين يتحدثون عن جوهر الإسلام دون أن يتعمقوا مضامينه الحقيقية ودعوته إلى التقدم الكامل المعنوى والمادى ، فقد حمل المسلمون أمانة العلم والحضارة ألف عام

وقدموا للإنسانية منهج المعرفة الإسلامية ذى الجناحين : القلب والعقل .

كما قدموا لها المنهج العلمى التجريبى نواة الحضارة الحديثة .

وقدموا للإنسانية منهجاً فى الاقتصاد والقانون والاجتماع والتربية ، قام على التوحيد والأخلاق والإيمان ، لن تجد الإنسانية مثيلا له مهما أبدعت من أيدلوجيات ومذاهب وفلسفات وسوف تعود إليه فى القريب مقتنعة بأنه هو منهج التقدم الأصيل

— ٦ —

قضية العلوم والإنسانيات

هناك منهجان لكل منهما مقاييسه وأدواته في الفهم والبحث ، منهج العلوم الذى يقوم على تجربه المعمل ، ومنهج الانسانيات الذى يقوم على مقاييس تختلف من تجربة المعمل ، لأنها ترتبط بالانسان الذى لا تحده مقاييس المادة ولا مقاييس الحيوان . ان أخطر ما تطرحه الفلسفه المادية انها تتخذ مقاييس العلوم الماديه أساسا للتطبيق على الانسان الذى هو : روح وماده وعقل وقلب .

قضية العلوم والإنسانيات

من أخطر النظريات التى صدرت عن الفلسفه المادية إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج الرياضيات والمناهج التجريبية . أو إخضاع الإنسان نفسه لتجارب الحيوان .

وقد كان من المقرر أساسا لدى الباحثين والعلماء أن هناك ثلاث مجموعات من العلوم :

* العلوم الرياضية ويتبع فى بحثها المنهج الرياضى

* العلوم الطبيعية والبيولوجية ويتبع فى بحثها المنهج التجريبى .

* أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهى لا تخضع للمنهج الرياضى ولا للمنهج التجريبى ، وإنما تخضع لمنهج خاص يتلاءم مع طابعها النفسى والوجدانى والذاتية .

ذلك أن موضوع العلوم الرياضية والطبيعة هو المادة والطاقة والحياة ، أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فإن مادتها هو الإنسان : سواء أكان فردا أو جماعة أو شعبا أو أمة .

* * *

وإذا كانت العلوم الطبيعية تحتكم إلى التجربة العلمية فى الفصل

بين الفروض المختلفة فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تملك ما يملك العلم الطبيعى من التجربة العلمية ، ذلك أن هذه العلوم الإنسانية تتصل بالنفس والروح والعقل وكلها لا تخضع للقوانين التى خضعت لها المـادة ، ولا للقوانين التى أمكن استخلاصها من دراسة الحيوان ، فالإنسان حيوان وزيادة وكل القوانين التى تطبق على الحيوان لا تصلح له لأنه أكبر منها .

وأبلغ أخطار هذه النظرة التى تحاول أن تخضع العلوم الإنسانية والاجتماعية لتجارب العلوم الرياضية أو تجارب الحيوان أنها تحاول اعتبار الإنسان قيمة مادية خالصة ، بينما يزيد الإنسان على الحيوان شيئاً آخر كبيراً « هو العقل » مناط التـكليف ، ومعقد الأمانة التى حملها والمسئولية الأدبية والتبعة الأخلاقية[1] .

* * *

ومن هنا تقف على أخطر خلاف جذرى بين مفهوم الإسلام ، ومفهوم الفـكر الغربى ، ومن هنا كانت مناداة الفـكر الإسلامى بالتماس منهج خاص لدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية يستمد

---

(١) راجع دائرة معارف فريد وجدى وكتاب الأستاذ الغمراوى بين والدين والعلم .

مفاهيمه من الإنسان نفسه ومن سنن الله فى الكون وهو علم منفصل عن العلوم المادية والبيولوجية والرياضية، له مقوماته وقوانينه.

ومن هنا فإن الإسلام يطرح قضية العلم جميعها فى ضوء مفهومه المخالف للمفهوم الغربى.

* * *

فما هو العلم وماهى الفلسفة ؟.

* * *

يجيب على هذا الدكتور الغمراوى فيقول:

ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمي إليه ولا كل ما ينتمى إلى العلم مفروغ من إثباته، بل كما أن فى العلم الحقائق التى لا شك فيها فإن فيه أيضا القضايا المفتقرة إلى الإثبات، أما حقائقه فهى مفردات المشاهدات فى ميادين العلم المختلفة وما يستنتجه العقل منها حسب قوانين التفكير الفطرية، ولكن ما كل ما ينتمى إلى العلم من هذا النوع هو علم.

والفروض التى يقدمها العلم فى ميادينه المختلفة ملتمسا بها تفسير مشاهداته هى عنده فروض رهن التجربة والامتحان، وهذه بعينها هى التى يستيقنها المشغوفون بكل جديد، وموقفهم هذا تلقاء

العلم يشبه مواقف العوام تلقاء من يكبرون من الأبطال الخرافيين أو الحقيقيين والذين يكثرون باسم العلم وليسوا منه ، هم فى التعصب إخوان العوام ، ينتصرون لكل جديد كما ينتصر العوام لكل قديم ، أولئك هم عوام الخواص » .

* * *

ومن هنا يصل الفهم الإسلامى للعلم إلى منطلق للعلوم الإنسانية والاجتماعية هو « علم الفطرة » هذا المنطلق الذى يحقق التطابق بين العلم والإسلام ، وأن مقياس الأدب والفن والحياة جميعا إنما يقوم على التطابق بين هذه المفاهيم وبين الفطرة التى فطر الله الناس عليها « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[1] .

يقول الدكتور الغمراوى :

إذا قدر الإنسان فى علومه المختلفة أن يحيط بالفطرة فسوف يستطيع أن يهتدى إلى فلسفة غير فلسفة الحاضر . عندئذ يرى الإنسان أن سنن الله فى الكون واحدة فى اطرادها وتناسقها وفى دقتها وصرامتها ، لا سبيل إلى تغييرها أو الإفلات من عواقب مخالفتها

(١) سورة الروم من آية ٣٠ .

سواء ذلك من ناحية المادة أو الطاقة فيها ، وناحية النفس والروح فى الأفراد والجماعات .

فإذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية فى المادة فإن عليه أن يهتدى إلى سنن الله فى الإنسان والمجتمع ، لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة فى المادة وبقى أن نكتشف سنن الفطرة فى الروح . روح الفرد وروح الجماعة . إن كتاب الله فاطر الفطرة بخير بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم .

* * *

فإن لله سننا لا تتخلف جرت فى الأولين بالإهلاك حين عصوا ، وابتغوا أهواءهم وهى جارية ولا شك فى الآخرين :

(فكأين من قريه أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها[1])

ونحن إذا حاولنا أن نحدد موقف الإسلام من هذه الحضارة نجد أنها بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات فإن المدنيه الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزء من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق

---

(١) سورة الحج آية ٤٥

والتماسك ، وهذا لايتحقق لأى مدنية من المدنيات إلا إذا قامت على الحق فى جميع نواحيها وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ودليل بعد هذه النواحى عن الفطرة » ا . هـ

* * *

وقد نعى كثير من الباحثين نظرة العلوم المادية إلى الإنسان ، ومحاكمتهم إلى القوانين التى اكتشفوها فى مجال العلوم أو الحيوان وكان أقصى ماوصل إليه علماء المادة هو القول بأن الإنسان ماهو إلا ظاهرة من الظواهر العامة ولذلك فلابد أن يخضع فى حياته الاجتماعية إلى قوانين المادة والحيوان . ومن هنا نشأت مذاهب علم النفس الفرويدى والوجودية وفلسفات متعددة تحاول أن تحاكم الإنسان (الذى هو روح ومادة) إلى مايحاكم به الظواهر المادية .

وهنا نقطة الخطأ التى أحدثت ذلك الاضطراب العجيب الذى يعيشه العالم والحضارة من خلال أزمة العقائد والفراغ والضياع .

— ٧ —

قضيه التجديد

ما هو مفهوم القديم والجديد بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى وهل التجديد مطلق أم انه يقوم على قواعد مضبوطة ، وهل التجديد فى الآداب كالتجديد فى العلوم ؟

ان الاسلام يطرح للتجديد مفهوما أكثر عمقا وأوسع مدى وأكثر اتصالا بمفهومه القائم على الوسطية والتكامل والحركة .

قضية التجديد

كلمة « التجديد» من المصطلحات التى اختلف فيها الرأى وأطلقت إطلاقاً جريئاً دفعها إلى الانحراف ، واتكأ عليها النفوذ الاستعمارى والتغريب فى محاولة لإلقاء الكراهية والازدراء للتاريخ واللغة والتراث .

واتهام هذه القيم جميعا بالتخلف .

وكان معنى التجديد فى نظر دعاته : [الانفصال الكامل عن كل قديم ، والاتجاه الشامل إلى كل جديد دون تحفظ أو اختبار] .

وفى مواجهة التجديد كانت هناك الحملة على التقليد واتهامها بالرجعية غير أن امتداد هذه الدعوى وبلوغها أقصى مدى التحدى ، كشف عن خلفيات الداعين لها وأهدافهم بما ارتبطت به هذه المصطلحات من غايات بعيدة المدى ، ومطامع لا حد لها ربطتها بالتغريب والنفوذ الاستعمارى .

* * *

ذلك أن الدعوة الحقة حين تدعو إلى التجديد لا تفصله عن

القديم ولا تعزله عن الماضى بل تجعل من الماضى سبيلا إلى الجديد ومن التطور رابطة بين القديم والحديث .

والغربيون أنفسهم الذين يحاول دعاة التجديد « المطلق » التماس مناهجهم ، إنما يفهمون التجديد على هذا النحو ، متصلا بالقديم نابعاً منه مستمداً من جوهره ، فلا انفصال مطلقا بين الأصالة والتجديد ، أو بين الماضى والحاضر ، وقد اعترف أصحاب النهضات والحضارات بذلك الترابط الأكيد بين الماضى والحاضر ، القديم والجديد ، وذلك استمداداً من مفهوم علمى أصيل . هو أن الأصول الأساسية فى بناء كل جديد .

وقد ذهب العلماء العقليون والتجريبيون معا — وهم أبعد الناس عن أوهام الفلسفة — إلى أن المعنى الحقيقى لكلمة (جديد) هى فكرة تقدم شىء فى طور التحول فى حين أن كلمة (قديم) تعنى الموجود الساكن الموضوع مسبقا ، وأن كلمة (قديم) استعملت عن العرب بمعنى الموجود لم يزل .

• • •

وتجمع المفاهيم العلمية للتجديد ، على أن التجديد فى الآداب كالتجديد فى العلوم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون بين الماضى والحاضر ،

حيث يبنى العمل فى حاضره على أساس العمل فى ماضيه ، وأن التجديد هو إبداع الحى فى آثار الميت ولا شك أن التجديد قانون طبيعى وقانون ثابت ، فإن لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط ، وشأنه فى الفكر هو شأنه فى الكائنات الحية ، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده التى تقرر بأنه لا ينفصل عن أرضيته وقاعدته ولا ينقطع عن تطوره الطبيعى .

ولقد أكد الباحثون المنصفون قيمة القديم فقال كارل بيرسون إن من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تخلخله ، تلك الصفة التى نبغضها ؛ صفة الجمود على القديم ، لا بل تقول بان العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات الإنسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات وهذه الصفات هى بمثابة الكور المتلظية نيرانا والتى بدونها لا نستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والنضلات الزائفه وهى التى تحمى الجسم الاجتماعى من أن يترك معرضاً لتغيرات تخريبية فجائية قد تكون غير مفيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر » .

أما « المحافظة فهى قانون طبيعى وسنة كونية ، وهى التى تحمى الأمم من آثار الغزو الخارجى وبها استطاع العرب والمسلمون الصمود فى مهاب الغزو التترى والصليبى والاستعمارى جميعاً وهى التى تحمى

شخصيات الأمم من أن تزيف أصالتها أو تمسخ ذاتيتها .

• • •

ولقد كانت ظاهرة المحافظة فى فترة الضعف والتخلف من أشرف الظواهر فى تاريخ الأمم فهى قد تمثلت فى نوع من الانطواء على الذات فى مواجهة الأخطار الجائحة فكانت روح المحافظة إذ ذاك نوعاً من الدفاع عن الذات وهى التى حفظت للمسلمين والشعوب لغتهم وشريعتهم وتاريخهم .

وقد أكد علماء التاريخ المنصفون جميعاً ، بأن ظاهرة المحافظة التى مرت بالفكر الإسلامى خلال الغزوات التترية والصليبية والاستعمارية ، هى بمثابة موقف حضارى أصيل ، مكن من صيانة القيم من الانحراف والانهيار فى ظل إعصار دخيل يدمر كل شىء أما « التقليد » فإن للفكر الإسلامى إزاءه موقف واضح .

ذلك أن التقليد هو المتابعة بغير يقين عقلى ، أو اقتناع برهانى والمقلد فى مفهوم الفكر الإسلامى لا يعد عالماً ، ذلك أن العلم إنما هو المعرفة الحاصلة عن دليل ، وقد ذم الإسلام أصحاب الرأى الذى لا يستند إلى دليل ، وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد والتبعية .

وأكد أن التقليد يمنع من «الأصالة» وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية .

ويقف الفكر الإسلامى من « التقليد » موقفاً واضحاً فى كلا مجاليه : تقليد القديم ، أو تقليد الوافد :

• تقليد القديم بغير برهان .

• تقليد الوافد الأجنبي بغير ضرورة .

وكلاهما يجب أن تتحرر منهما الأمم التى بلغت مرحلة الرشد الفكرى وتسقط فيهما الأمم الضعيفة ، وأخطر الأمور أن تدعى الأمم إلى التحرر من تقليد قديمها لتقع فى تقليد الأجنبي عنها وكلاهما يفسد الشخصية والذات ، ولكل أمة ثقافتها وقيمها ومزاجها النفسى والاجتماعى فلا تحتاج إلى تقليد أمة غيرها فى أسلوب تفكيرها أو تعتنق قيمها ومفاهيمها .

ولقد كان الفكر الإسلامى متفتحاً دوما على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته ، ولا شك أن التغريب إنما يستهدف من الدعوة إلى « التجديد المطلق » بمقاييسه المسرفة البعيدة عن الأصالة والتكامل ، ومن هجومه على القديم إنما يريد أن يدفع العرب والمسلمين إلى الانصهار فى ثقافات الأمم والخروج من مقوماتهم وشخصيتهم .

ذلك أن لكل أمة فطرتها وثقافتها الخاصة التى تقوم على أساس تراثها ولقد حذر الإسلام من خطر التقليد فى كلمة رسول الله الجامعة .

[لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه][1] .

قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى .

قال : فمن ؟

• • •

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

إذا كان المسلمون يطلبون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا خارجه ، وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب فى نظمه الاجتماعية .

إن التقليد رق وقد حرر الإسلام منه الإنسان إلى الأبد ، ذلك أن التقليد هو أداة الانحطاط . وأن أخص خصائص التقليد : هو الاتباع من غير روية ولا فهم والاقتناع لا عن تفكير ولكن عن ثقة السائل بالمسئول ، والتابع بالمتبوع وقد تبرأ الإمام الشافعى من

(١) أورده الامام ابن كثير فى تفسيره .

تبعة من يقلده فيأخذ برأيه دون أن يقف على دليله » . ا هـ

وبالجملة فإن التقليد هو إبطال وظيفة العقل ، ولقد جرى المسلمون والعرب شوطاً طويلا فى السنوات المائة الأخيرة فى تقليد الغرب دون حصانة فى الحفاظ على مقوماتهم ودون استنارة فى تقليب ما يأخذون وكانوا إزاء ذلك كله فى موقف المضطر [تقليب] الذى لا يملك إرادته الحرة ، أما اليوم فإن الأمر يختلف ، فقد انكشف كثير من الحقائق أمام العقل العربى الإسلامى ! وكان للأحداث الخطيرة أثرها فى إعادة النظر فى كثير من النظريات التى تقبلها البعض على أنها مسلمات بينما هى نظريات تحتمل الخطأ والصواب .

* * *

وصدق « تارد » الذى عرض لمثل هذه المعانى فى كتابه (قوانين التقليد) حين قال : إن الفكرة التى لا تتفق مع أفكارنا والتى تصطدم فى نفوسنا بعقيدة أو تضاد رغبتنا أو حاجتنا ، هى فكرة مرفوضة لا نقلدها ، ففى اللغة لا نقبل الكلمة ولا نحبها إلا إذا استجابت لحاجة الفكرة ، وإلا إذا وقعت على ما نعتقده وما نحسه فى نفوسنا .

والقانون المقبول هو ما استجاب لعقائدنا وما سد نقصاً فى حاجتنا » ا هـ .

— ٨ —

قضية الأصالة

ماتزال قضية الاصاله من القضايا الخطيره : علاقه الاصالة بالتجديد وعلاقتها بالتاريخ وعلاقتها بالتبعية ، ولقد خاضت الاقلام فيها وطرحت مفاهيم متباينة مستمدة من النظرية الغربية ، غير ان الاسلام له نظرته للاصالة ومفهومه لها ٠

قضية الأصالة

إن مفهوم الأصالة من هذه المفاهيم الذى اختلف فيها الفكر العربى الإسلامى عن الفكر الغربى ، تقديراً وعمقاً ، ذلك أن الفكر الغربى الذى ساقته نظرية التطور سوقاً إلى الإيمان بالتغير الكامل ؛ لم تعد تهمه من قضية «الأصالة» إلا ظلالها ؛ بينما يركز تركيزاً كبيراً على « التجدد » ، ولا يرى أن « الأصالة » تمثل أكثر من البعد التاريخى للتحول .

ولذلك فإن النظرة إلى الماضى يخالطها كثير من الإحساس بالاستغناء أو محاولة التمرد على القديم ، وذلك جرياً مع التاريخ الطويل الذى واجهت به أوربا ماضيها اللاهوتى ، وتراثها المتصل بالدين والزهادة والرهبانية التى هاجمتها مختلف النظريات الحديثة وحملت عليها الفلسات حملة عنيفة .

ومن هنا كان إحساس الفكر الغربى بالأصالة ضعفاً خافتاً ، لأنه فصل تماما بين فكره الحديث وبين ذلك التراث حتى إنه حين أنكر هذا الماضى وتحرر منه ارتد مرة أخرى إلى الارتباط بالوثنية الإغريقية وجددها وأحياها حتى اتخذ من أساطيرها أصولا لنظريات

علم النفس والوجودية ، فقد اعتمد سارتر وفرويد فى أغلب النظريات التى حاولوا إعطاءها طابع العلم على أساطير اليونان الخرافية .

وإذا كان هذا هو موقف الفكر الغربى الحديث انفصالا عن التاريخ والتراث القديم فلابد أن يكون مفهوم الأصالة باهتاً ومضطربا .

* * *

أما مفهوم الأصالة فى الفكر الإسلامى فقد كان دائما بمثابة أساس البناء ، فالتجدد قوة من القوى التى اعترف بها الإسلام باسم « الاجتهاد » وجعلها علامة على الحركة واليقظة وجعلها مرتبطة بالأصالة رباط القديم بالجديد ، والماضى بالحاضر ، فالأصالة هى ذلك التراث النقى والميراث الحى الذى تشكل عليه الفكر الإسلامى استمداداً من القرآن أولاً ، والسنة الصحيحة تفسيراً له وتطبيقاً ، ثم نما الفكر الإسلامى حلقة بعد حلقة ، وعصراً بعد عصر فى ظلال الأصالة لم ينفصل عنها ولم ينقطع وامتدت شراينه على مدى العصور وظل محافظاً على أصالته فى أحلك الأزمات وأسوأ فترات الضعف والتخلف . وكان القرآن هو الدم الذى يجرى فى هذه الشرايين لم ينقطع ولم يتوقف .

فالأصالة فى مفهوم الفكر الإسلامى « تجدد » متصل يتجه نحو

الكمال ويحفظ القيم الأساسية وينميها ، ثم هو مقاومة دائمة لدوافع الانحراف والتخلف معا ، فالأصالة ترتبط بالتجدد فى نفس الوقت الذى ترتبط فيه بمقاومة التبعية .

* * *

والفكر الإسلامى حين ينفتح على « المعاصرة » لا ينسى أبداً قيمه وذاتيته التى لا تذوب أو تنصهر فى معرض النقل والاقتباس فالأصالة لا تحد من المعاصرة والتجديد ولكنها تعمل على تحرير القيم من التبعية والتقليد .

ذلك أن أخطار الشعوبية فى تاريخ الإسلام القديم ، والتغريب فى تاريخه الحديث ، إنما كانت تحاول أن توسع مجال المعاصرة بحيث تقضى على الأصالة أو تذيب القيم الأصيلة للفكر الإسلامى فى بوتقة الأممية .

ولقد كان الإسلام فى تاريخه كله قادراً على تحقيق الالتزام بالعصر والتقدم والتجديد دون أن يفقد الأصالة .

وليست الأصالة تشبثاً بالماضى أو تعصباً له ، وليست هى تقديس التاريخ ولكنها إيمان بالقيم الثابتة وتأكيد للوجود الذاتى ومحافظة على كيان الأمة فى أصالة فكرها .

* * *

ذلك أن الأخطار والتحديات التي واجهت الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى العصر الحديث كانت جميعها تحاول أن تقضى على مضمون الأصالة على النحو الذى هو مفهوم هذا الفكر .

وفى طريق القضاء على الأصالة كانت الدعوة إلى «التساهل»[1] الذى دعا إليه كثير من كتاب التغريب باسم التسامح فى تقبل الآراء الغربية ، أو [تحرير الفكر[2]] بحيث تنسى مقررات فكرك وعقائدك فى سبيل تقبل الرأى الوافد .

إن الدعوة إلى تغليب العصرية على الأصالة دعوة مسمومة والقول بأن الأصالة هى التاريخ ؛ هو قول زائف ، ذلك أن الأصالة فى الفكر الإسلامى العربى إنما تمثل تلك الحصيلة الضخمة التى أقامها القرآن ونماها الأئمة والأبرار من مفكرى الإسلام على مدى أربعة عشر قرنا ؛ وهى ليست تراثاً قديماً وإنما هى ميراث حى متجدد لم يتوقف عن الحياة لحظة واحدة فى مواجهة تطور المجتمعات والحضارات ، وكان (ولا يزال وسيظل) قادراً على العطاء .

***

(١) فرح أنطون — مجلة الجامعة م ٤ سنة ١٩٠٣ .

(٢) مجلة العصور ١٩٣١ .

إن كلمة « العصرية » فى الفكر الغربى تحمل صورة الانسلاخ من العقائد ، والتحرر من القيم ولسنا نحن الذين نقول هذا بل تقوله إحدى الكاتبات الغربيات اللائى انكشف لهن نور الحقيقة .

تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة « مريم جبيلة » .

إن البلاد المسلمة قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة ومنها مصطلح « العصرية » وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى .

* * *

فالعصرى يراد به رجل لا يرضى بالإسلام ديناً معقولا مفهوماً لدى العالم أجمع ، كما يراد به رجل يحاول أن يفسر الدين والعقيدة تفسيراً جديداً يثبت به أنه ليس هناك تعرض بين القيم الإسلامية وقيم الحضارة الغربية .

إن الرجل العصرى وإن لم يتفق والإسلام إلا باسمه يطلق حكمه على الإسلام على أساس مبادىء وأهداف استوردها من الغرب ويظنها — شعوريا أو لا شعوريا — أرفع من المبادىء الإسلامية ، وكل شىء من الإسلام يناقض تلك الأهداف المستوردة .

ولاشك أن العصرية أو العصرنة فكرة تغريبية خطيرة يراد بها

تحريف الأصول الإسلامية لتبرير الواقع الحضارى القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الإسلام أو مفهوم الدين بعامة .

فالعصرية محاولة فرض مبادىء وأهداف غربية ترمى إلى احتواء الفكر الإسلامى وجعله خاضعاً للواقع الغربى فى قيمه ومذاهبه مع تجاهل واضح لما بين الفكرين الإسلامى والغربى من تباين عميق فى قضايا كثيرة وأنه لا سبيل لتحقيق (العصرنة) إلا بإخضاع الفكر الإسلامى للفكر الغربى وهو ما لا يمكن أن يحدث .

* * *

فالفكر الإسلامى بأصوله القائمة على التوحيد كان دائما قادراً أن يحتفظ بذاتيته الخاصة ، يأخذ من الفكر البشرى ويترك ، وقد عجزت كل القوى — فى أحلك الظروف والأوقات — أن تصهره أو تخضعه أو تفقده مقوماته .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تحتوى الديانة والفكر اليهودى ثم احتوت الديانة والفكر المسيحى ، فإنها قد عجزت عن أن تحتوى الإسلام والفكر الإسلامى الذى أخذ منها ورفض ، واستطاع بعد صراع طويل أن يتحرر منها وأن يكشف عن منطقه وذاتيته مستمداً أصول ذلك كله من القرآن نفسه .

وإذا وقف الإسلام موقف « الثبات » والصمود أمام محاولات

احتوائه أو صهره، ووصف ذلك من دعاة التغريب أنه الجمود أو التعصب ، وهى عبارات ظالمة لا يستطيع الخوف منها أن يذل الإسلام وفكره للسيطرة الغربية .

وقد أكد كثير من المفكرين الغربيين المنصفين ما ذهبنا إليه من أن الإسلام والفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى والبلاغة العربية لا يمكن تفسيرها فى ضوء المذاهب الغربية .

* * *

أما إذا كانت (العصرنة) تعنى دفع الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة العربية إلى مواجهة الحياة العصرية والالتقاء بالحضارة العالمية والفكر البشرى أخذاً وعطاءاً ، فإن ذلك أمر قائم لم يتوقف يوما ما، فقد كان الفكر الإسلامى دوما فكراً مفتوحاً قادراً على الأخذ والعطاء وكان له آفاقه المنظورة مايمكنه من الالتقاء بمختلف النظريات الحديثة البناءة التقدمية فى مجال الاقتصاد والقانون والاجتماع .

ولم يكن الإسلام بقيمه الثابتة عاجزاً يوماً عن الحركة والتقدم والعطاء ، بل إن هذه القيم الأساسية من عقيدة وشريعة وأخلاق كانت هى أقوى الحوافز لإعطاء البشرية قيمة إنسانية أعلى من مفهومها المادى الخالص .

* * *

وليس من شأن الإسلام أبداً ولن يكون أن يبرر انحراف الفكر الغربى أو الحضارة الغربية القائمة ، أو يقبل من مفاهيمها ما يختلف مع جوهر التوحيد ، أو ما يتعارض مع أصوله القائمة على دحض الربا والإباحية والإلحاد والوثنية .

لقد استطاع الإسلام أن يحرر الإنسانية من أعظم أغلالها وهى الوثنية واستطاع الفكر الإسلامى أن يتحرر من العبودية لغير الله وحده . وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعدالة التى عجزت الحضارة الغربية عن إطلاقها والتى باتت معضلة العصر وأزمة الإنسان المعاصر . هذا فضلاً عن أن تكامل الإسلام جامعاً بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة قد أعطاه قيماً عقلية ونفسية وسعت مجال إنسانيته وسماحته وقضت على كثير من الصراعات والأزمات وخاصة أزمة القلق والضياع التى يعانى منها الفكر الغربى .

أما التراث الإسلامى العربى فهو ليس قديما متحفيا منفصلا عن الواقع ولا عن المجتمعات ، بل هو ميراث حى ملىء بالحيوية لم يتوقف عن التفاعل فى المجتمع الإسلامى والفكر الإسلامى خلال أربعة عشر قرنا كاملة ، دون انفصال أو توقف ، وهو تراث بناء تقدمى ما تزال مفاهيمه نابضة بالحياة قادرة على عطاء البشرية .

— ٩ —

مفهوم البطولة

ما تزال حركة الغزو الثقافي والتغريب تطرح مفاهيم وافده لمفهوم البطوله ، ولا ريب أن للبطوله في الفكر الاسلامي مفهوما مباينا لمفهومها في الفكر الغربي ، ولقد خلد المسلمون البطوله بخليد عمل ، وكرهوا وثنيه البطولة ورفضوا الأحجار.

مفهوم البطولة

« البطولة » قيمة من القيم الإنسانية ، غير أن لها فى كل فكر مفهوما ، ومفهومها فى الفكر العربى الإسلامى يختلف عن مفهومها فى الفكر الغربى . وكذلك كلّ القيم واحدة فى الاسم ، متباينة فى المفهوم ، ومرجع هذا التباين اختلاف البيئات والثقافات والأديان والأصول الأساسية التى قام عليها فكر الأمة وتشكلت عليها ذاتيتها ومزاجها النفسى والاجتماعى .

ويرجع مفهوم البطولة فى كل فكر بشرى إلى العوامل التى شكلت هذا المفهوم ، والتاريخ الذى أثر فيه واستفاض عنه . وأن الوعى بهذه الأصول والعوامل من شأنه أن يضعنا على الحقائق التى تختلف فيها الرؤية ، ووجهة النظر بالنسبة للبطولة وما يتصل بها من مفاهيم الزعامة والعظمة ، وما يقوم من تفرقة واضحة بين النبوة والعبقرية ، وما يتبع هذا من مفهوم للمأساة والفن ، وللتصوير المسرحى لشخصية البطل ونهايته ، وفى فكرنا الإسلامى يبدو الأمر واضحا وضوحا جلياً ليس فيه خفاء ، فنحن نكرم البطولة ونضعها موضع

التقدير ، ولكننا نختلف عن الفكر الغربى فى أساليب تقديرها وتكريمها .

* * *

ونحن نجعل أسس تقدير البطولة عملها لا شخصها ، ولذلك فنحن نكرم العمل الذى هو بمثابة الإضافة الحقيقية التى قدمها لأمته وللإنسانية ، وهذا هو ما يسمى بالتخليد المعنوى ، الذى يقوم على تقدير الكلمة أو العمل ، ولا ينصب أبداً على تقدير الفرد أو تقديسه أو وضعه فى صورة يبدو معها فى مجال التأليه أو ما يشبهه على النحو الذى عرفه الإغريق قديما حين رفعوا أبطالهم إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة ، أو على ما ينهمه الفكر الغربى الذى يستمد أصوله من النظرة الإغريقية التى ترمى إلى تجسيد الأبطال فى صورة مادية والذى يرجع أصلا إلى الطابع الوثنى الذى يطبع فلسفات اليونان والهنود .

أما الإسلام ومنه يستمد الفكر الإسلامى أصوله وقيمه فله طابعه الذاتى المجرد ومفهومه الصريح الواضح لهذه القيمة الإنسانية فبطولة الإسلام : هى بطولة فكر لا بطولة أحجار وتماثيل . فليس فى الإسلام هيا كل تدمر ولا بعلبك ولا الأهرام ، وليست (تاج محل) فى الحقيقة

تصويرا صادقا لمفهوم الإسلام ولكنها انحراف عنه . وقد أوفى الكثير من الباحثين هذا المعنى وفى مقدمتهم الدكتور عبد السلام العجيلى الذى يقول :

ربما عد البعض هذا الفهم نقصا ولكنى أعتبره من مزايا العبقرية فلم يخلف العرب (والمسلمون) على الحجارة ما خلفته الأمم الأخرى .

فأوان الحضارة العربية لم تنحتها من حجارة ، ولم تسجلها الصخور ، بل سجلتها الأعمال الحية .

ويبدو هذا المعنى واضحا من وراء الوعى ، فى قول عمر بن عبد العزيز لرجل كتب يستأذنه فى بناء سور للمدينة حين قال :

« حصن مدينتك بالعدل » .

وكم من سور يزوره السائحون وهو مبنى على أساس من الظلم والجور ، ويمتد أثر هذا المفهوم إلى الفن الإسلامى كله .

يقول الدكتور العجيلى : إن فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ بينما يتميز بالجمال والدقة وخفة الظل ، فهو لم يقصد به أن يطاول الدهر وإنما أريد به أن يكون متعة للعين والروح .

* * *

ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات فى طابع الفن والبطولة ويصل هذا المعنى إلى غايته بالقول بأن الذوق الإسلامى العربى لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة لأن الروح الإسلامية لا تميل إليه ولأنه لا يتفق مع فطرتها التى تجد مجالها الفنى فى « الكلمة » وليس هذا مفهوم الذوق العربى وحده ولكنه فى الحق إنما يتصل مفهوم الفكر الإسلامى الأصيل المستمد من جوهر الإسلام والقرآن أصلا وربما أخذ به العرب وعمقوه وإن تخلف فى أجزاء أخرى نتيجة غلبة الفلسفات الوثنية السابقة للإسلام . والفن الذى تعلق به العرب وأخلصوا له قبل نزول القرآن هو الشعر ، لأنه أرضى رغبتهم فى الحيوية والاستثارة وجاءت الموسيقى امتدادا للشعر واتصالا به والفارق بينهما هو الفارق بين السذاجة والترف .

وجملة الرأى أن الطابع العربى الإسلامى فى الفن والحضارة هو طابع الحيوية والروح العلمية ملخصا فى كلمات قليلة :

« أعمال خالدة لآثار خالدة » .

* * *

ولقد حرر الإسلام مفهوم البطولة من الأسطورة كما حرره من وثنية التكريم وذلك أن الإسلام قد ضرب قاعدة من أعظم قواعد

تقدير البطولة فى العصور السالفة تلك هى فكرة « عبادة البطل » أو تأليهه أو وضعه فى مصاف القدرة الخارقة . فالبطل فى الإسلام ليس مقدسا وليس أسطوريا .

والمثل الأعلى فى البطولة الإسلامية هو النبي ﷺ ، المؤيد بالوحي والذى لا ينطق عن الهوى ، ومع ذلك فقد أكد القرآن فى أكثر من موضع أن النبي بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويتوفاه الله ، وأن مفهوم الخلود الجاهلى والوثنى لا ينطبق عليه وإنما الخلود خلود الأعمال والبطولة بطولة الأعمال .

* * *

ولقد رفض الإسلام تأليه النبى تحريا لمفهوم التوحيد والإيمان بالله الواحد الذى له وحده حق العبودية والقداسة والاستعلاء الذى لا يصل إليه البشر .

ومن هنا : فقد حارب الإسلام مفهوم « عبادة الفرد » أو الغلو فى تكريمه أو الإسراف فى تقدير ذاته وجعل البطولة كلها والتكريم كله للعمل وحده .

وبذلك حرر النفس الإنسانية من عبادة الفرد ومن الوثنية التى

صنعت عشرات الآلهة وأنصاف الآلهة فى الأمم الوثنية وخلقت عبادة الأصنام والأوثان .

* * *

وأنكر الإسلام المبالغات التى كانت تضفى على البطل من ميزات خارقة أو صفات عالية تفوق قدرات الإنسان الطبيعية وكلها تدخل فى نطاق الأساطير .

وقرر الإسلام أن هذه النظرة إلى الإنسان البطل تجافى الحقيقة فإنه من المستحيل على الفرد مهما أوتى من قدرة وفطنة وذكاء أن يكون له نفوذ الإله القادر الذى له وحده مقاليد الأمور ، ولقد ارتبطت عبادة الفرد فى بعض الأمم بالعبودية التى كانت تتيح للملوك والسادة والأمراء حق التصرف بالاستغلال والموت والبيع للعبيد ، الذين تحت إمرته .

هذه العبودية التى انتشرت فى العالم القديم (بابل وأشور) وسمرقند ومصر والهند والصين ، ثم بلغ هذا النظام العبودى أوجه عند الإغريق فى القرن السادس ووصل فى روما إلى أقسى صورة قبيل ظهور الديانة المسيحية .

وقد دافع فلاسفة اليونان الكبار عن هذه العبودية وأقرها أكبرهما (أرسطو وأفلاطون) ودافعا عنها دفاعا حارا .

وقد بلغ عدد العبيد في روما عشرون مليونا مقابل ٢١٤ ألف مواطن حر وكان في أثينا أربعمائة ألف عبد، بينما يبلغ سكانها الأحرار ٢١ ألف مواطن ، وحيث قامت الحضارة الرومانية بمعابدها وأبنيتها الشاهقة على أساس العبودية وكذلك الأمر في الزراعة ، حتى توفى الامبراطور أوغسطس عن أربعة آلاف عبد .

وقد حطم الإسلام مفهوم العبودية ودعا إلى الأخوة والمساواة ، وحرر معها مفهوم البطولة الذى كان مرتبطا بالمفهوم العبودى .

ولقد أعطى الفكر الغربي لمفهوم البطولة صوراً مختلفة منها : العبقرى والعظيم والنابغة والقديس والبطل ، وأجرى ماكس شيلر الفليسوف الألمانى مقارنات واسعة بين هذه المفاهيم .

وجرت مناقشات واسعة حول التاريخ وصانعيه : واختلفت نظرية الغربيين الليبراليين أصحاب مفهوم الديمقراطية والفردية عن مفهوم الماركسيين الاجتماعيين أصحاب مفهوم التفسير المادى للتاريخ ، وانقسم الرأى حول مفهوم توماس كارليل الذى أورده فى كتابه : (الأبطال وعبادة الأبطال) وبين مفهوم نيتشه الذى تحدث عن الإنسان الأعلى . ومنه صدر مفهوم التفسير المادى .

أما عباد البطولة فيقولون : إن التاريخ فى جوهره عبارة عن سير

العظماء وأن التاريخ من صنع العباقرة وأن العظيم هو البطل الذى غير مجرى التاريخ .

* * *

ويرى أصحاب نظرية التطور : أن التاريخ سلسلة من الحوادث وأن العظماء نماذج للبيئة التى يعيشون فيها وأن الظروف هى التى تخلقهم وأبرز رجال النظرية المادية فى البطولة (هربرت سبنسر) الذى يقول إن الإنسان خاضع لمحيطه ويتطور بتطوره ، وأن التطور المادى هو أساس المجتمع ، وكلا الرأيين مسرف فى اتجاهه مغال فى تقديره ، للبطولة أو ضدها ، ومفهوم الإسلام للبطولة أقرب إلى الصدق والاعتدال .

فالإسلام لا يعطى البطل كل هذا التقدير ولا ينكر أثره فى المجتمع ولكنه يرى أنه من صنع المجتمع وثمرة له ، ثم هو مغير للمجتمع . وأن البطولة ترتبط بإنكار الذات وبالقيمة الأخلاقية .

وقد حاول الأستاذ (ارمان) أن يتحدث عن بطولة النبي محمد فى هذا المجال فقال : لقد أخفقت محاولاتى الكثيرة لإيجاد مؤرخ واحد يستطيع البرهنة على أن النبي محمدا ﷺ كان وليد الحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تسود الجزيرة العربية فى القرن السابع بعد الميلاد ، ولم أجد بين المؤرخين أيضاً من يقدر

أن يقول : لو لم يبعث النبي محمد لكان من الطبيعي أن يستعاض عنه بشخص يقوم بنفس المهمة التي اضطلع بها .

* * *

فقد قام محمد ﷺ بأعمال خارقة حين جعل أبناء الصحراء أمة تمكنت من المحافظة على المدينة وقدمتها إلى نصف أرجاء المعمورة.ه .

وقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة تحدد مفهومها : فكل الأبطال الذين عرضهم القرآن : أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون بل يقفون دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس .

فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة التقدم والبناء ومن هنا فقد عجزت قوى العدوان عن أن تقتلهم أو تنتصر عليهم ، وكانت المقاومة عندهم إيمانا من أعماق النفس وسلاحا فى اليد يعملان معاً فى اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة .

لقد كان البطل دوما فى مفهوم الإسلام : « استجابة » لحاجة المجتمع والأمة ، وفق نواميس تكوينها التى قامت عليها ، ينبعث فى وقت الأزمة من أعماقها ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل فوق موجة من موجات التقدم .

ولقد كان الرسول ﷺ ـ وسيظل ـ النموذج الإسلامى الأعلى للبطل ، وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله موضع القدوة والأسوة طوال فترات التاريخ الإسلامى ومراحله وما يزال حتى اليوم موضع القدوة عند كل بطل وقائد . فهو الذى كان إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وهو الذى وجده الناس عائدا من مصدر الصوت الذى أفزع المدينة على فرس عرى عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذى وقف فى (حنين) كالطود بعد أن تفرق أنصاره على إثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادى الناس (إلىّ إلىّ . .) وهو الذى كان يفرق دائماً بين موقفه فى الغار ولا قوة معه يلتمس نصر الله ، وموقفه فى بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل أن يكله الله إليها ، فهو يلتمس من الله نصراً مجرداً من الأسباب ، وهو البطل الذى لم تذهله الأحداث والقائد الذى لم يهزم قط وقد كون بمكة خلال ثلاثة عشر عاما جيلا من القادة المغاوير ، رباهم على البطولة والإيمان والتضحية فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل هذا الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتوالية .

ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ، وسر عظمة صلاح الدين ونور الدين التماسهما من روح النبى ومفاهيمه وأسلوبه وهو نفسه مصدر النصر الذى حققاه .

— ١٠ —

اصطلاح المأساة

ما نزال هناك فوارق عميقة حـول الشخصية والقدر ، الفكر الغربى الذى يستمد مقوماته من وثنية اليونان والرومان، فى ضوء هذا المفهوم تقوم المأساه التى تفرض الصراع بين الانسان والاله والتى تنتهى دائما بهزيمة الانسان ، ولا شك أن هذا مفهوم وافد ، ومناقض تماما لمفهوم الاسلام فى البطولة وفى علاقة الفرد بخالقه الرحيم •

اصطلاح المأساة[1]

يحاول الفكر الغربي أن يفرض على المسرح والقصة والبناء الفني للأبطال مفهوما يقوم على أساس انتهاء القصة أو البطولة بمأساة أو فاجعة ، ويقوم هذا التقدير الفني والنهاية الحتمية لكل قصة بطولة على أساس مفهوم وثني إغريقي قديم مصدره ما حاولت الآداب اليونانية من افتراضه من صراع بين الآلهة وبين الإنسان ، وهو افتراض يستمد وجوده من تاريخ طويل يقوم على أساس الأساطير وتقديس الأبطال وعبادة الفرد وتحويل بعض الأبطال القدامى إلى آلهة وأنصاف آلهة ، وما يتصل بذلك من توزيع الاختصاصات بين الآلهة ؛ فمنها آلهة الحصاد ، وآلهة الجمال ، وآلهة الخمر ، وغير ذلك مما تزخر به الأساطير اليونانية التي اتخذها الأدب الغربي الحديث أساسا له ومصدرا .

* * *

(1) التراجيديا تعبير فني غربي عن ما يسمى في القصة « المأساة » وهي عكس الملهاة

وقد أضيف إلى ذلك محاولة تصوير حياة بعض الأنبياء على هذا النحو من وقوع المأساة والقتل وهو ما يسمى نهاية الصراع بين القدر والإنسان والمفترض أن يسقط الإنسان فى هوة المأساة والهزيمة .

وقد جرت محاولات فى الأدب العربى الحديث لإدخال هذا المفهوم إلى المسرح العربى وعمد بعض كتاب القصة إلى إخضاع البطولات الإسلامية والشخصيات العربية لهذا المفهوم ، وجملة ما يذهبون إليه يتعارض مع مفهوم الإسلام والثقافة العربية ، ويتعارض مع طبيعة الفكر الإسلامى والمزاج النفسى العربى الذى كوّنه القرآن ، وقام على أساس الإيمان بالله وعقيدة « القدر » بوصفها قوة دافعة ، أما المفهوم الغربى الذى يقومُ على أساس عجز الإنسان أمام القدر ، بمعنى أن الإنسان دائماً فى موقف المغلوب وأن الإنسانية واقعة تحت ضغط قدر لا يرحم .

* * *

هذا المفهوم لا يعرفه العرب والمسلمون واستمدادا من مفاهيمهم وقيمهم المستمدة من الدين الإلهى والإسلام لا تقر هذا ولا تعترف به ومن المستحيل أن رابعة العدوية أو السيد البدوى كانا يؤمنان بهذه المفاهيم التى حاول بعض كتاب القصة إخضاعها لنظرية غربية

وثنية : نظرية الصراع بين الإنسان والقدر ، ذلك لأن الإسلام حرر الروح الإنسانية من هذه المفاهيم الوثنية الجاهلية بل لقد دحض الإسلام نظرية [الخطيئة] التى حاولت الأساطير أن تربطها ببعض الأديان أو بعض الأنبياء .

ذلك لأن خطيئة آدم إنما كانت خطيئة ذاتية تتعلق به وحده وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فى إفاضة ووضوح ، وقرر أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا صلة مطلقا بين خطيئة آدم وبين الناس وأن الفكر الإسلامى لا يؤمن بانسحاق الإنسان بل بكرامته وسيادته تحت حكم الله ولا يقر مفهوم الصراع الذى ينتهى بضياع البطل .

وقد واجه كثير من الباحثين هذه النظريات الوافدة التى يلتقى فيها مفهوم البطل بين اليونانية واليهودية والمسيحية الغربية وهو فكر مستمد من نظرية الخطيئة الأصلية وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور شكرى عياد فى معرض مناقشة بعض المسرحيات التى اتخذت هذا المفهوم الوافد فقال : « نرى أن هناك أسبابا أساسية فى نظرتنا إلى الحياة تجعل شخصية البطل التراجيدى كما يعرفها الأدب التمثيلى الغربى بعيدة عن إحساسنا الأصيل بحيث إننا قد نستمتع

بمشاهدتها ولكن لا نستطيع أن نخلقها وقراءتها فى أدبنا خلقا .

* * *

ومفهوم التكفير (عن الذنب) موجود فى تراثنا ولكننا نلاحظ أن فعل التكفير لم يستعمل فى القرآن إلا مستندا إلى الله :

« ويكفر عنكم سيئاتكم »

ونفهم من ذلك أن الله يمحو ذنب الإنسان التائب وفى تراثنا كلمة هامة هى كلمة « العصمة » والفقهاء يقرون عصمة الأنبياء من الذنوب فى نفس الوقت الذى يجمعون فيه على أنهم بشر ، وكل إنسان يجب أن يلجأ إلى الله :[ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم[1]] .

والنتيجة هى أننا فى نظرتنا إلى الحياة يمكننا أن نفهم الضعف والجريمة ، ولكننا نفهم أيضاً أن الإنسان يجاهد ضعفه أو ميله إلى الجريمة جهاداً مستمراً وأن هناك قوة عليا تسنده فى ذلك ، ونحن نشترك مع البشر جميعاً فى اعتقادنا أن العقاب الذى ينزل بالخاطىء هو كفارة أو تكفير عن ذنبه ، إلا أننا نعطى قيمة

(١) سورة آل عمران من آية ١٠١

كبيرة لجهاد النفس ونرى أن القوة العليا تكون دائماً قريبة منا في هذا الجهاد .

* * *

وهذا التصور للذنب أو الجريمة من الناحية الروحية مختلف إلى درجة كبيرة عن التصور الغربي الذي لا يزال مرتبطاً بتراث اليونان كما نراه في تراجيدياتهم .

فالتراجيديات اليونانية حين تصور لنا سقطة البطل تفترض أن هناك صراعا بينه وبين القدر ، وبينه وبين نظام الكون الذي لا يفهمه أولا يسلم به دون فهم ، إلا حين يرى هلا كه .

ولهذا تكون سقطة البطل في التراجيديات اليونانية شيئاً نابعاً من إنسانيته نفسها راجعاً إلى استعماله لعقله وقوته كشأن (أوديب) الذي حاول بكل ما في الطاقة الإنسانية أن يتجنب الوقوع في المحظور ولكن قضاء الآلهة (اليونانية) نفذ فيه آخر الأمر وكان مالا بد أن يكون . ذلك هو البطل اليوناني . أما البطل المسلم فهو أكثر وعياً بالنسبة إلى دوافعه وأعظم إيماناً بالقدر ، ولا أظن أن ذلك راجع إلى أننا لم نتجاوز عصر الملاحم بعد ، ففي كل أطوار حضارتنا

بارتفاعاتها وانخفاضاتها لم تتصور الإنسان قط على أنه محكوم عليه بالخطأ ، وإنما تصورناه مركزا لصراع مستمر بين الخير والشر . وهو ميدانه والقابض على السيف فيه ولم تتصور صراعه مع القوى الخارجية إلا نتيجة لهذا الصراع الداخلى وتحقيقاً له[1] .

* * *

ولا شك أن القصة التراجيدية أو المسرحة وفق المفهوم الغربى تصادم النفس العربية الإسلامية من ناحيتين .

(الأولى) من ناحية الصناعة والتلفيق . فالنفس العربية الإسلامية تؤمن بالواقع ، والواقع يؤكد أن عشرات من الأبطال لم تنته حياتهم بالمأساة إذ أنهم لم يصادموا الأقدار بل كانوا مثالا عالياً للرحمة والعطاء ، وقد استطاعوا أن يقدموا لأمتهم إضافات جليلة وحققوا أعمالا باهرة .

(الثانى) هو قسر القصة على أن تنتهى بالهزيمة : فشرط المأساة (وهى عمل فنى) وليس صورة واقعة من الحياة أن ينهزم فيها

---

(١) عن بحث له بمجلة الثقافة ١٩٦١

الحق دون الباطل وأن يهوى الإنسان الطيب وينتصر الشرير ، على حد عبارة مؤلف كتاب المصطلحات الأجنبية .

والواقع أن القصة فى مفهوم الأدب العربى وفى منطلق الحياة نفسها ووفق مقاييس الحق والعدل الإلهى لابد أن تنتهى بانتصار الحق وسقوط الباطل والشرير ، وأن هذا المفهوم الذى فرض على المأساة والمسرح الغربى إنما يستمد وجوده من بروتوكولات صهيون التى ترمى إلى خلق جو دائم من التدمير وإعلاء قيم الشر والباطل وانتصارهما فى وجه الحق والخير .

* * *

ولا شك أن خضوع الأدب الغربى الحديث لهذا المفهوم يعد مجافاة حقيقية للواقع والصدق ، ومعارضة أكيدة للنفس الانسانية فى نظرتها وأصالتها التى تلتمس دائماً الخير والضياء والحق .

وأن محاولة دفع المفاهيم الوثنية الإغريقية إلى القصة والمسرح وإعلاء طابع الطقوس والموسيقى الجنائزية والصيحات المدوية

والاستعراضات الصاخبة كل هذا مهما بدا فى ظاهره مثيرا فإن النفس الإسلامية العربية تصد عنه ولا يجد لديها تقبلا .

ولا شك أن المزاج النفسى العربى بطبيعة تكوينه فى ظلال المسجد وهتاف الله أكبر والأذان قد شكل لنفسه جرْسا خاصا يستريح له ويجد فى سماعه طمأنينته المتصلة بالله خالق الكون كله .

— ١١ —

النبوة والعبقرية

هناك فوارق دقيقة بين المصطلحات ، تحاول أن تنفذ منها دعوة التغريب لإفساد المفاهيم الدقيقة في الفكر الاسلامى ، من ابرز هذه الفوارق ما بين النبوة والعبقرية ، فقد جرت مجادلات لتصوير الأنبياء بالبطولة أو الزعامة أو العبقرية ، وهي محاولات تحاول ان تخرج هذه الشخصيات التى تستمد وحيها من السماء ، تحاول اخراجها عن حقيقتها وجوهرها ..

النبوة والعبقرية

خطران واجها سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويواجهان سيرة كل نبي مرسل مؤيد بالوحى ، هذان الخطران هما : التفسير المادى للتاريخ ، والتفسير النفسى للتاريخ ، وكلاهما يستمد مصادره من الفلسفة المادية التى تنكر عالم الغيب كله بما فيه من نبوءة ووحى ورسالات سماوية .

ومن هنا فإن الاعتماد على كلا المنهجين أو أحدهما إنما يخرج سيرة النبي من أعظم مصادرها ، وينكر أبرز مفاهيمها وأقوى عوامل الإعجاز فيها ، وبذلك لا ينكشف على وجه الحقيقة جانب القوة غير الطبيعية التى ما زالت موضع دهشة بعض الباحثين والمستشرقين والتى حققت انتشار الإسلام وتوسعه فى أقل من مائة عام .

وبدون هذه الجوانب التى تتخطاها الفلسفة المادية ومذاهب التفسير المادى والتفسير النفسى للتاريخ لا يمكن الكشف عنها أو إبرازها .

وخطأ آخر هو : مساواة شخصية النبي المؤيد بالوحى بشخصيات الصحابة ، وهم ليسوا على درجة واحدة مع النبى ولن يكونوا ، فهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ، وهم رجال يخطئون ويصيبون ومن هنا فمن غير المنطق الصحيح إطلاق عبارة العبقرية أو البطولة أو العظمة الإنسانية على النبى وعلى الصحابة بدرجة متساوية أو أن تدرس حياتهم جميعاً فى نطاق واحد .

ومن هنا تختلف النبوة عن العبقرية وتختلف النبوة عن البطولة والعظمة الإنسانية فى جانب جوهرى ضخم هو جانب « الوحى » ، وفى تقرير الباحثين أن ما بين النبوة والعبقرية واسع ، وعميق . ذلك أن النبوة تقوم على الوحى والإخبار عن الله تعالى ، أما العبقرية فهى فى تقدير الباحثين نوع من الإلهام والذكاء والبراعة ، وربما وصف عمر بالعبقرية على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [وقد كان محدثون فإن يكن من أمتى أحد فإنه عمر بن الخطاب] ، أما الأنبياء فلا يوصفون بذلك .

والمحدثون هم الملهمون فى إصابة الحق والصواب فى حل المعضلات ، ومن الخطأ أن يوصف النبى بالعبقرية أو بالزعامة السياسية أو بأنه رسول الحرية أو بالبطولة فإن هذا كله إنما يعنى التماس

تفسير مادى دنيوى لأعمال الرسول وذلك يجردها من طابعها الجامع بين شخصية النبي وقدراته الفائقة كبشر وبين تأمين الوحى له وتوجيهه كرسول ونبي مرسل من عند الله :

[قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ][1] .

ولقد كتب كثير من المستشرقين وكتاب الغرب عن النبي محمد على أنه بشر عظيم ، ومصلح كبير ، وبطل عبقرى وتابعهم بعض كتابنا فى هذا الاتجاه دون أن يستطيعوا الالتفات إلى الفوارق الضخمة بين النبوة والبطولة .

* * *

ومصدر الخطأ فى الكتابات العربية أن أصحابها التمسوا مناهج الغرب فى دراسة التراجم والشخصيات والأعلام وأنهم أقاموا دراساتهم عن الرسول وفق أسلوب غربى وضعه الباحثون فى الغرب لدراسة أعلامهم وأبرز هذه المناهج هى أسلوب لومبروزوا ، وأسلوب أميل لدوفيج وكلاهما يصدران عن الفلسفة المادية وينكران النبوات ولعل أبرز مفهوم لعظمة نبوة النبي والفارق بينهما وبين البطولات والعبقريات إنما يمثل فى حوار أبى سفيان والعباس بن عبد المطلب

(١) سورة الكهف من آية ١١٠ .

حين وقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين وهو يشق طريقه إلى مكة فقال :

يا عباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

وأجاب العباس فى سرعة وفهم عميق :

إنها النبوة يا أبا سفيان .

ولا شك أن للإسلام منهجه الصريح الواضح المستقل فى دراسة الأعلام وفى فهم البطولات وهو فهم يقوم على أساس من أصوله الواضحة الصريحة والتفرقة الواضحة بين أوليائه وخصومه .

* * *

فلا يستطيع الباحث المسلم أن يسلك فى منهج واحد شخصيات مختلفة لمجرد أن لها أسماء لامعة دون أن يكون الإسلام هو الفيصل فى تقدير هذه الشخصيات وبطولاتها .

وأخطر المناهج فى تفسير البطولات الإسلامية والنبوة هو المنهج الفلسفى الذى يستمد أصوله من الفلسفة المادية ، ذلك أن للقرآن منهجا واضح الدعائم والدلائل يمكن أن يطبق على كل ما يتصل به من تاريخ أو بطولات . أما منهج الفلسفة فى تفسير الإسلام وبطولاته فهو منهج غير مؤهل .

ذلك لأنه يعمل فى غير ميدانه ويقايس الأمور بأقيسة عاجزة عن أن تصل إلى أبعاد القضايا التى يتصدى لها .

ذلك لأنه منهج يقوم على المعرفة المادية الحسية العقلية التجريبية وهى ليست فى منهج المعرفة الإسلامى إلا شق واحد . أسلوب متكامل يرتبط فيه العقل والقلب ، والحس والوحى ، وعالم الغيب وعالم الشهادة أما خطأ مدرسة لومبروزو فى تقييم البطولات والشخصيات فإنها ترد عظمة العظماء إلى ملكاتهم الممتازة وحدها ، فالملكات الممتازة فى الأفراد هى مفتاح تفسير هذه البطولات .

وهذا المنهج الذى اعتمد عليه بعض كتاب التراجم والعبقريات لا يقل عن التفسير المادى للبطولة فساداً واضطراباً .

وهو عاجز حقاً عن أن يفسر بطولة أبى بكر وعمر وخالد وغيرهم ذلك أن العقيدة الإسلامية قد حولت هذه الشخصيات وأجرت تغييراً كبيراً فى مفاهيمهم وتصورهم للأمور وتقديرهم للقيم ، وقد استطاعت أن تخلق هذه الشخصيات خلقاً آخر ، فى ضوء التوحيد والحق والعدل والإيمان والأخلاق ، وقد أخرجتها عن جلدها القديم فى سلوكها وتفكيرها ومزاجها النفسى والاجتماعى .

ويظهر ذلك جلياً فى ذلك التحول الخطير الذى طرأ على عمر

وخالد وغيرهم ، فقد تعارضت مقاييس الإسلام مع مفاهيمهم القديمة تعارضاً تماما فى كثير من الأحيان ، فاختلاف الولد مع أبيه والأم مع ابنها بل قتل الأخ بعد إسلامه أخاه أو أباه الذى كان على الشرك ، وطلب المسلم من النبى عندما علم أن الإسلام قد أهدر دم أبيه أن يسمح له بقتل أبيه ، ويظهر ذلك التحول واضحاً فى موقف الخنساء التى كانت تثير الدنيا لموت أخيها صخر فى الجاهلية فإذا بها بعد الإسلام تقدم أربعة هم أعز أبنائها وفلذة كبدها إلى الشهادة فرحة باستشهادهم راضية نفسها بنصر المسلمين .

* * *

ومن الحق أن التكوين الموروث وطبائع النفس وملكاتها عنصر هام من عناصر الشخصية ولكنه لا يستطيع وحده فى مفهوم الإسلام وفى بيئته أن يفسر الشخصية أو يلقى الضوء الحقيقى على تصرفاتها . وأن الاعتماد على الملكات النفسية وحدها يحجب جانباً هاماً هو دور العقائد والتربية وينكر أثرها فى توجيه الأشخاص ، ولا شك أن التربية الإسلامية التى أقام الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وأتباعه عليها ذات أثر كبير فى التشكل النفسى والعقلى الجديد لهذه النماذج من أصحابه الذين كتبوا صفحة جديدة فى مفهوم البطولة يختلف

فى مضمونها وتفسيرها عن البطولات الأخرى والتى تعجز المناهج الغربية فى تفسير البطولة عن استيعابها .

أما مذهب [أميل لدوفيج] فهو مذهب بعيد كل البعد عن الأصالة والفطرة وهو واحد من هذه المذاهب التى أقامتها الصهيونية العالمية لتحريف البطولات وتدميرها ، وهو حلقة فى تلك الأيدلوجية الطاغية التى عمدت إلى تعرية البطولات وتفريغها من العظمة والكرامة .

ويعلن [أميل لدوفيج] فى وضوح أنه يضيف من الخيال وأنه يتكىء على جوانب الحب والغرام وأنه يعول على سحن الوجوه وسمات الأجسام وعلى الفراسة ، ويقول : [تستطيع[1] أن تكتب قصة تاريخية عن الجندى وتسرد إلى جانب حروبه وفتوحه حادثة من حوادث الغرام والعشق . وعندما أبدأ سيرة أحد المشاهير (جيتى أو نابليون) مثلا ، فإنى لا أعنى بفلسفة الأول أو انتصارات الثانى بل أفحص صورة كل منهما وأقرأ خطاباته وأعرف حوادث عشقه أو أحاديث المرأة التى كان يحبها فإن فى فسيفساء غرائزه وأهوائه الرفيعة والوضيعة التفسير الصحيح لشخصيته] .

---

(١) محمد عشرى الصديق فى محادثة خاصة معه (يناير ١٩٣٠) .

ويقول : [حاولت أن أثبت أن الطباع البشرية واحدة أى أن طباع الرجل العظيم وطباع راعى الغنم واحدة متشابهة .

ويقول : أنا أثبت أن العظماء إن هم إلا مثلنا فى أكثر الأشياء وليسوا خلائق أرقى خيراً كما يبدو لبعض الناس .

ومما فهمه محدثه : أن يولى اهتمامه بأماكن الضعف والحقارة فى طباع العظماء وأعمالهم . وأنه يحاول أن يقرر أن عظماء الرجال ليسوا إلا بشراً فى كل شىء ، وأن الفروق التى تفصل بينهم وبين غيرهم من الأوساط العاديين هى فروق لا تمس الجوهر .

ولا شك أن مفهوم لودفيج مستمد من مفهومين واضحين : هما التفسير المادى للتاريخ ، ونظرية فرويد فى إعلاء الجنس والغرائز البشرية وهو امتداد لهما فى محاولة لتدمير كل الأعلام الذين وضعهم التاريخ الأوربى موضع التقدير والإعزاز وأنه معارضة كاملة لمفاهيم ومذاهب تقدير البطولة والعظمة الإنسانية .

وبعد : فإن كلا المذهبين [مذهب لمبروزو ومذهب لدوفيج] مختلف كل الاختلاف عن المفهوم الإسلامى للتاريخ والبطولة ، هذا المفهوم الذى يعلى شأن الأعمال والذى يفرق بين النبوة والعبقرية .

وقد عرض الدكتور محمد أحمد الغمراوى لهذه التفرقة فقال: إن محاولة وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأنه عبقرى من العباقرة هى محاولة توحى بأنه لا نبي ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الأديان المنزلة والناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد: عبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من إيحاء خفى إلى نفسه أن محمدا وأبى بكر وعمر من قبيل واحد، عبقرى من عباقرة وإن يكن أكبرهم جميعاً كالذى سمى النبي صلى الله عليه وسلم (بطل الأبطال) فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور . بدلا من صنف اختتم به صلى الله عليه وسلم، صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله .

« فالنبي والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحى ومن كتاب ولا كذلك العبقرى ولا البطل، فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير، وكم فى الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى وكلهم يدين له صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النبيين » ا . هـ

* * *

أما محاولة تصوير النبى المرسل المؤيد بالوحى بأنه [رسول الحرية] فإنه يستهدف إنكار الوحى والنبوة والرسالة ووضع النبي

فى صورة بطل ظهر فى أمة فاستطاع أن يقودها ويجدد حياتها ويصلح مجتمعها .

وتنطلق هذه النظرية من مفهوم النظرية المادية فهى تتجاهل النبوة والوحى وتقوم على أساس المنهج الغربى فى فهم البطولة . ويحاول أصحاب هذا المنهج تجاهل كل ما أيد الله به رسوله من أمور غير معتادة ويجرون مجرى المستشرقين فى الادعاء الباطل بأنه صلى الله عليه عليه وسلم تلقى من بشر أو علمه بشر وأنه أخذ من الرهبان والأحبار أو أنه كان يعد نفسه قبل البعثة لقيادة أمته ، أو أن الوحى كان مناماً وأن الإسراء كان حلماً من الأحلام .

والواقع أن هذه الشبهات جميعاً إنما تصيدها خصوم الإسلام من الأساطير والإسرائيليات التى جرت محاولات ضخمة لإضافتها والتى قامت المناهج العلمية فى تحقيق الحديث والسنة على تحريرها منها .

ولقد تأثر كثير من الكتاب الذين اتصلوا بالفكر الغربى بمفاهيم الماسونية فلما عادوا لينظروا فى سيرة الرسول لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من الطابع « المادى » أو « الوثنى » أو من مفهوم الحرية الغربى وغاب عنهم الفارق العميق بين النبوة من ناحية وبين البطولة أو العبقرية من ناحية أخرى مما دفعهم إلى تفسير البطولات

الإسلامية بمذاهب الغرب ورد عظمتهم إلى الملكات الموروثة ، بينما خلق الإسلام هؤلاء خلقاً جديداً ، ذلك أن هناك فوارق عجيبة بين حياة هؤلاء الأعلام وتكوينهم النفسي والاجتماعي قبل التقائهم بالنبي وبعد أن صاغهم صياغة جديدة وفق مفهوم القرآن وعلى هدى التوحيد الخالص وفي ضوء الأسوة الحسنة [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة][1] إن الذي صاغ هذه النفوس هو مفهوم (العقيدة الإسلامية) وليس مفهوم الملكات الموروثة أو مفهوم البطولة السابق للإسلام وهو مفهوم كان يقوم على الاستعلاء والفخر . ولا شك أن العقيدة قادرة على أن تغير النفوس وتصوغها من جديد وفي هذا ما يعارض رأى بعض القائلين بأن المجرم إنما هو مجرم نتيجة غرائزه وأعصابه وملكاته ولذلك فهو لا يعاقب — هذا المفهوم الذي يعارضه الإسلام معارضة واضحة ويكشف في سيرة هؤلاء الأعلام كيف تحولت شخصياتهم ونفسياتهم بعد الإيمان بالله وأصبحت خلقاً جديداً .

أما بالنسبة للأساطير فقد جرت محاولات جريئة في العصر الحديث لإعادة إدخال الأساطير إلى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١

بعد أن كانت مهمة المصلحين والعلماء على طول التاريخ تحرير الفكر الإسلامى منها وإقصاؤها عنه .

وقد حاول بعض الكتاب تجديد هذه الأساطير وبعثها وإضافتها إلى السيرة أو وضعها على هامشها ، وذلك بعد أن اندثر هذا اللون من الأدب ونقيت السيرة النبوية منها ، كما عمل الكثيرون على الكشف عن هذه الإسرائيليات فى تفاسير القرآن المختلفة .

وقد كان الهدف من هذه الإسرائيليات فى [إقامة «مثيولوجية[1]» إسلامية] لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى واستمساك رجال الدين فى بعض العصور بهذه الأساطير ورميهم من لا يؤمنون بها بالمروق والإلحاد هو الذى يسر رغبة الكثيرين عن هذه العقائد التى يفرضها العقل وإن اتهموا فى إيمانهم ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور وارتفعت صيحة الشيخ محمد عبده فى العصر الأخير لتطهير العقائد من هذه الأوهام[2] .

---

(١) المثيولوجيا : هو علم الأساطير أو ما يسمى بالأحداث المارقة والخرافات وما غير التاريخ الصحيح .

(٢) الدكتور محمد حسين هيكل : راجع البعض بالكامل فى كتابنا المعارك الأدبية .

والواقع أن الإسلام لم يعرف الأسطورة وكذلك الأدب العربى ولقد ساق المستشرقون والمبشرون حملة ضخمة على الفكر الإسلامى لخلوه من « الأسطورة » التى تعد فى نظرهم فنا عالياً من فنون الأمم الراقية ، ولقد كان الفكر الإسلامى والأدب العربى واضحاً صريحاً قادراً على الفهم والتعبير دونما حاجة إلى الظلال والرموز ولذلك فلم يكن فى حاجة إلى الأساطير أو إلى الرمزيات ذات الظلال والأضواء .

— ١٢ —

الفنون الجميلة

ما هو مفهوم الاسلام للفن ، وما هو الفارق العميق بين هذا المفهوم وبين مفهوم الفكر الغربى • ان الاسلام يقر الفن ويعلى من قدره ويسمو به فوق كل زيف ولا يقر الكشف أو الاباحة ويربط قيم الفن بالاخلاق •

الفنون الجميلة

أبرز مفاهيم الإسلام هو التوازن بين الروح والمادة ، وتكاملهما من أبرز مفاهيمه تقديم الخلق على الجمالى ، وتقوم المفاهيم جميعها على أساس التوحيد وتدور فى دائرة الحق والعدل والإيمان بالله ، وتتخذ من الأخلاق طابعاً واضحاً وإطاراً شاملاً .

فالفنون لا تخرج عن أنها وحدة من الكل المتناسق وهى عنصر بناء يتلاءم مع العناصر الأخرى وترمى كلها إلى بناء الإنسان الربانى الإيجابى الذى لا يتحطم بالإسراف فى الترف واللذات ، ولا يجمد بالإسراف فى الزهادة والرهبانية .

وأخلاقية الفن إلتزام أصيل صادق لا تنفك عنه الفنون الجميلة والآداب ، والفكر الإسلامى لا يفصل بين الفنون وبين الأخلاق ، بل يوائم بينهما ويجعل الأدب والفن أخلاقياً وصادقاً فى نفس الوقت ، ذلك أن بناء الإنسان الفكرى والمتصل بالذوق والحس لا ينفصل عن شخصيته كلها ، ومن هنا فلابد من التكامل بين الروحى والمادى ، وبين الجمالى والخلقى .

ولذلك لا يقر الإسلام مفهوم « الكشف » فى الفنون والآداب ولا التصوير القائم على الإباحة ويرتفع عنه ويتسامى .

ذلك أن هذا الاتجاه إلى الكشف والإباحة فى الأداء الأدبى والفنى يتعارض مع طبيعة النفس الإنسانية ومزاجها الفطرى وذاتيتها القائمة أساساً على الإيمان بالشرف والعرض وإعلاء شأن الخلق والعفة ورعاية الأسرة التى تنحرف عن الاصالة وتضطرب بانحرافها عن هذا المنهج .

* * *

وقد صور هذا المعنى الدكتور شاكر مصطفى فى عبارة موحية حين قال :

[القيم فى ثقافتنا فوق الجمال وقبل الجمال حتى لتكاد الثقافة الإسلامية كلها تكون ثقافة القيم ، الإغريق جعلوا حتى الآلهة لغوا من الفن ، والحضارة الغربية منذ عهد النهضة أطلقت الجسم للعرى وعبدت الجمال على حساب الخير ، أما نحن فنؤمن بالتوازن بين الروحى والمادى]

[نحن مع ضباب الغيب ومن كثافة المادة على مدى واحد] .

[التزاما غريبة عنا ، المادة ما ملكت منا الرقاب]

[أبدا ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود ، ولا محا عالم الغيب عالم الشهادة ، روحيون روحية إيمان ، ماديون ما كانت المادة إنسانية أخلاقية] .

[ثقافتنا متصلة بالماضى العربى متصلة لا مكروه] .

[لدينا معيار للحشمة فى السلوك والعاطفة ونطلب منه أن يكون ضابطاً لشهواته سمحاً كريماً] .

[والإحساس بالزمن لدينا وتر مشدود بين الأزل والأبد] اه .

* * *

ومن هنا نجد التباين الواضح فى مفهوم الفنون الجميلة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى الذى يعتمد مذاهب الفلسفة اليونانية فى فصل الفنون والآداب عن الأخلاق ، منذ أعلن أرسطو أن جمال الأدب لا يستند إلى الأخلاقية ، وإنما هو معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية .

وليس كذلك الفكر الإسلامى الذى يقوم على التكامل بين الفنون والآداب والاجتماع والدين والحضارة .

وقوام مفهوم الإسلام « أخلاقى توحيدى » يتسامى بالغرائز ، ويرتفع بالنفس الإنسانية إلى الكمال دون أن يبعد عن الواقع ، وقد عُدّ الفن فى نظر الفكر الإسلامى أداة تجميل الحياة ووسيلة الإسعاد الروحى والنفسى بتحرر الإنسان من أهوائه وغرائزه ودفعه فى نظرة حرة إلى الكون والوجود .

وما تزال النظرية العلمية فى الفنون قريبة من مفهوم الإسلام ، وهى تعترف بأن حياة الفن قائمة على الضوابط وأن محاولة تحرير الفن من كل قيد لا يحقق عنصر الجمال . وأن الحرية المطلقة ليست هى الجمال ، وأن الضوابط فى الفن هى روح النظام ؛ أما الحرية فهى منهج القبح ، وأن الفن له هدف وتصميم وأنه يعتمد على ملكة التنظيم ، ويستمد وجوده من الواقع والحقيقة ويخدم قيم المجتمعات ، وكل فن يخلو من هذه المفاهيم لا يعدّ فناً .

ومعنى هـذا أن النظرية الجديدة فى الفن والمطروحة بقوة فى مجال الفنون والآداب فى السنوات الأخيرة هى نظرية تعارض الفطرة والذوق الإنسانى بصفة عامة قبل أن تعارض مفهوم الإسلام نفسه .

ولقد وجهت إلى الحركة السريالية وغيرها نقدات كثيرة ، ووصفت بأنها ليست فناً ، لأنها خرجت عن قواعد الفن ، فهى أخلاط من الصور وأشتات من الأحاسيس .

* * *

وقد شهد (تولستوى) بأن إعراض « الفن » عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المنفعة ، وأشار إلى أن المتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة وقال : إن فقدان اليقين الدينى قد أفقر موضوعات الفن وقصر الاستمتاع بها على طبقة محدودة من طبقات المجتمع .

وقد دارت مناقشات واسعة فى مجال الفكر الإسلامى والأدب العربى الحديث بين النظرية الوافدة التى تقول بتقدير الفن لجماله فحسب وبين النظرية الأصيلة التى تقول بأن تقدير الفن يقوم على أساس جماله وأخلاقيته معاً .

ولا شك أن نظرية إطلاق الفن من كل القيود هى نتاج من آثار الوثنية الدينية فى صورها المتعددة كذلك هى أثر من آثار الفلسفة الماسونية التى أنشأتها اليهودية العالمية فى عصر التنوير الأوربى ،

والتى تصدر لها رجال الماسونية الكبار أمثال فولتير وروسو وديدرو.
ومن جاء بعدهم ثم كشفت بروتوكولات صهيون عن الهدف منها فى أكثر من موضع وخاصة قولهم فى البروتوكول الرابع :

إن لفظ الحرية تجعل المجتمع فى صراع مع جميع القوى بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها ، (جل الله وعلا) .

وإن سيطرة القوى اليهودية والصهيونية العالمية على الفنون هو أثر من آثار هذا التوجيه الذى يراد به هدم القيم الإنسانية التى جاءت بها الأديان .

* * *

ولقد أشار الكثير من الباحثين إلى [أدب المجون واللذة] الذى أصبح يتهدد الثقافات المختلفة ، والذى أصبح يؤلف جزءاً كبيراً من الفنون والآداب المطروحة فى سوق الأدب العربى والفكر الإسلامى .

وقد حذر الكثيرون من المفكرين بمدى خطورة هذا اللون على الأخلاق وإفساده للذوق ، وكيف يراد (إنقاذ ذلك التيار إلى صلب التكوين العقلى والنفسى ، ليترك أثره السىء فى صميم الأوضاع السياسية والاجتماعية) .

والمعروف أن مصادر هذا الأدب تتمثل فى الفلسفات المادية التى [تبرر انتهاك حرمات العدالة والإنصاف والفضيلة على أساس الفكرة التى تقول بأن البقاء للأصلح والحق للقوة] والتى [تنكر الروحانية التى هى عنصر أصيل فى الثقافات الشرقية] .

وتحاول هذه المذاهب جميعاً [تجريد الأشياء من جميع القيم فاضلة كانت أم غير فاضلة وتفتيشها بمقياس الحالية الراهنة[1]] ولا شك أن هناك خلاف واسع ، وتباين أكيد بين طبيعة هذه المجتمعات وما تضطرم فيه من أحاسيس وعواطف وبين المجتمعات الإسلامية التى تشكلت أساساً والدين جزء منها والأخلاق رباطها الذى يربط مختلف القيم ويمثل جوهرها .

ومن هنا كان لابد من الدفاع عن المقومات الأصيلة للفكر الإسلامى والثقافة العربية وتحدى هذه التيارات الدخيلة .

* * *

وقد صور الدكتور محمد أحمد الغمراوى موقف الفنون من الحياة وتطابقها مع الإسلام فقال :

---

(١) من بحث للدكتور عمر حليق : الرسالة سنة ١٩٥١

« إذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب أن لا تخالف أو تناقض دين الفطرة ، دين الاسلام فى شيء ، فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ماقدر له من الرقى فى النفس والروح ، وإذا خالفت الفنون الدين فى شيء من هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة » .

— ١٣ —

لقاء الأجيال

هل بين الأجيال صراع أم لقاء ، ان هناك محاولات تفرضها التبعية لبروتوكولات صهيون ولدعوة التغريب ولمحاولة تدمير مقومات المجتمع الاسلامي تحاول أن تفرض مفهوم الصراع بين الأجيال بينما الواقع يقرر أن ما بين الأجيال لقاء لا صراع •

ان مفهوم الاسلام يرى أن هناك تكاملا بين جيل وجيل ، قوامه تكامل بالتلقي وعطاء بالتجربة •

لقاء الأجيال

[يتردد القول بأن مابين الأجيال هو صراع ، وخصومة ، وتضارب وتعارض ، والحق أن مابين الأجيال ليس كذلك ، ولكنه لقاء وأمانة ، وبناء على الأساس وفكر متصل وارتباط بين القديم والجديد والماضى والحاضر ، وإخراج للحى من الميت ، وعطاء من صاحب التجربة وطموح من الجيل الجديد فى أن يكسب كل ماسبقه إليه الجيل الماضى ليزيد عليه وينميه .

ولقد علت فى ظل التحديات التى يمر بها العرب والمسلمون وهى تحديات الغزو الثقافى والحرب النفسية وأثر النكسة كلمات غاضبة صاخبة بعيدة عن الحق والعقل والمنطق وواقع التاريخ تريد أن تفرض الصراع بين الأجيال وتحاول أن تصور التطور التاريخى والمتصل بين جيل وجيل على أنه صراع بينما تكشف النظرة الصادقة المنصفة المستأنية أن هناك لقاء متصلا ، على طريق واحد ، رسمته القيم الأساسية لهذه الأمة ، هذه القيم التى مازالت ثابتة قائمة بالحق والعدل وعلى التوحيد والإيمان ، تبنى الأجيال جيلا بعد جيل وتنمى علائقه

وروابطه وتنفى عنه الدخيل والغريب والفاسد وتؤصل الأصيل والصحيح ، وترد دائما محاولة الافناء والاحتواء والتغريب وتصحح المفاهيم وتحرر القيم وهى رسالة دائبة لاتتوقف منذ عرف المسلمون والعرب أن لهم عدوا قائما على حدودهم ، يريد أن يبطش بهم ، فهم قد صنعوا فكرهم على أنه فكر مقاوم قادر على الأخذ والعطاء له طبيعته المستقلة الذاتية المفتوحة فى نفس الوقت دون أن تجمد أو تذوب .

* * *

لقد تنبه الشباب إلى تلك الحملة الضارة التى تقودها قوى الاستعمار العالمى لإيقاع الخصومة والصراع بين الأجيال والتى تحرض الأجيال الجديدة على أن ترفض التجربة والعبرة والفكر الماثل وتدعوها لأن تتقدم فى فراغ وظلام بدعوة غربية ضارة هى أن للجيل الجديد الحق فى اختيار طريقه دون وصاية أحد .

ومن الحق أن الأجيال الماثلة لم تقم بواجبها فى تقديم تجربتها وخبرتها إلى الأجيال الجديدة وأن الأجيال الجديدة واجهت اضطرابا كبيراً ونقصاً شديداً تحت تأثير عوامل كثيرة دفعت الشباب إلى التماس الخطأ لأنه لم يجد التوجيه الشديد إلى الخير ، ولكن ليس معنى

هذا أن ترفض الأجيال الجديدة القاعدة التي تبنى عليها وجودها الحي ، فذلك حقها الذى تطلبه وتصر عليه حتى يقوم بناؤها على الأساس .

ذلك أن أى بناء لابد أن يقوم من الواقع وأن ينمو امتدادا لما قام فعلا ، إذن فلا سبيل لها أن تنفصل عنه وإنما هى تبدأ منه أساسا ثم تنمو به وتجدده لتضيف لبنة .

وهى فى الحق تعرف أن هناك القوائم الثابتة التى لاتتغير مع الزمن ، والقيم الأساسية القادرة دائما على الالتقاء مع كل عصر وجيل ، وأن هناك عناصر التغيير والتحول والتطور التى تتجدد وهذه هى التى سوف يتاح للأجيال الجديدة أن تنميها وتحولها بما يوائم الزمن والبيئة ومتطلبات العصر .

* * *

ومن الحق أن يقال إن الأمر بين الجيل الماثل والجيل القادم ليس فيه وصاياه وليس فيه صراع ، وإنما فيه تنوير وتفسير وعطاء وكشف للتجارب التي مر بها هذا الجيل بما يضيء للأجيال القادمة طريقها الصحيح .

وهى عدة المسافر ، وزاد المتأهب لحمل الأمانة وهى مراقبة النبت الصغير حتى ينمو وحمايته من العطب وتسديد خطاه فى مرحلة تقصر فيها العيون عن النظرة البعيدة والقدرة على الإحاطة بالأبعاد المتعددة للمسائل والقضايا .

وتلك هى عملية التكامل بين الأجيال : أخذا وعطاء ، أما القول بأن الأجيال الجديدة تستطيع أن تشق طريقها دون أصالة القائم ، وأرضية الموجود ، وأساس البناء ، فتلك دعوى زائفة يراد بها إفراغ المعانى من مضامينها ، وإخراج الوقائع عن أصولها فليس هناك سبيل إلى الانفصال بين الحاضر والمستقبل ، شأنه شأن استحالة الانفصال بين الماضى والحاضر .

* * *

ولقد تحاول دعوات هدامة إلى هذا الفصل لأن طبيعة فكر هذه الأمم يقوم على استقلال القيم أوتفرقها ، ولكنه فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية عسير أشد العسر ، ذلك لأن هذا الفكر وتلك الثقافة تشكلت بطبيعتها على قاعدة التكامل لا التجزئة والشمول لا الانفصال ، والنظرة العاقلة البعيدة عن المؤثرات المضللة تنتهى إلى هذه الحقيقة .

وكل وحدة فيه تسلم إلى الوحدة الأخرى وتتأثر بها وتجمعها جامعة واحدة قوامها التوحيد وطابعها الأخلاق ، والإيمان بالله وأخلاقية القيم ، هى خلافنا الأساسى مع الفلسفات والمناهج التى تدين بها بعض الأمم التى يتحدث عن صراع الأجيال .

* * *

هذه الفلسفات المادية هى التى صنعت ذلك الانفصام فى شخصية الأمة وألقت تلك الظلال من القلق والصراع .

أما وقد تشكل فكرنا منذ أربعة عشر قرنا والإيمان بالله جزء منه والأخلاقية التزام كامل يطبع مختلف مناهج الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية والقانون فنحن فى حصانة من اقتحام موجات القلق مادمنا نعتصم بقيمنا ، هذه الموجات التى تمثل أزمة الإنسان المعاصر والتى لا تجد طريقها إلى النفس البشرية إلا إذا فصلت القلب والعقل والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ومن أخطر ماتروج له الدعوات الضارة التى صدرت أساسا من توجيهات بروتوكولات صهيون والتى تشكل (الايدلوجية اليهودية المدمرة) الدعوة إلى كراهية الأخ الأكبر .

* * *

ولاشك أن هذه المحاولة لتجسيم الرابطة بين الأب والأسره هى نتيجة من نتائج التغير النفسى الذى قدمه (فرويد) من أجل تدمير القيم الإنسانية وأريد به إذكاء الخصومة فى الأسر بين الأب والأبناء .

ولقد صاغ الإسلام هذه الرابطة على نحو بناء قوامه مسئولية الآباء ومحبتهم وإيمانهم بالأجيال الجديدة من ناحية وقدرة الأجيال الجديدة على التلقى بالصبر والثقة فى الآباء وإيمان بأنهم يحمونهم من العثار فى مرحلتهم فى أشد الحاجة فيها إلى التوجيه وأن هذه الضوابط التى قد يقسون عليهم فى التزامها هى أهم الركائز التى سوف تقيم شخصياتهم قوية صامدة فى وجه الأعاصير والأهواء ، بل لقد أثبت علماء النفس المنصفون من غير مدرسة فرويد ، أن هذه الحماية والرقابة فى التزام هذه القيود لم تترك فى النفس البشرية أثراً ما ، يدفعها إلى المرض أو التحدى أو الاخطار على النحو الذى يحول به [فرويد] وأعوانه ، ولايقصدون به الحق أو الخير وإنما يريدون به خلق جو من الفزع يدفع الآباء إلى ترك أسلوب التوحيد والحماية والتفريط فى أمانة الرعاية على النحو الذى نسمع به فى كثير من المجتمعات اليوم .

إن هناك محاولة خطيرة لفرض مفاهيم مضادة للفطرة الإنسانية لا بالإقناع والعقل والتجربة والإحصاء العلمى وإنما بالتخويف والإرهاب من خطر وهمي غير موجود كالقول بأن الإبطاء فى إطلاق الغرائز يصيب بالأمراض بينما أن الأخلاق لم تكن إلا قيداً منظما أو وقاية ضابطة لا خوف منها ولقد بلغ العلماء أبعد من ذلك حين قالوا :

إن ما نسميه غرائز إنما هى ميول لدنة يمكن توجيهها أية ناحية وأن (٩٩ فى المائة) مما نسميه غرائز إنما هى اتجاهات اجتماعية قد غرسها فينا المجتمع برجوع انعكاسية مكيفة فالمجرم يرتكب جريمته بعادات ذهنية وعاطفية واجتماعية وليس بغريزة مورثة وكذلك الأمر بالنسبة لكل تصرف خاطىء كالعادات الضارة فهذه كلها أمور تتسع النفس الإنسانية للرجوع عنها ولو سارت فيها طويلا دون أن تفقد شيئاً ، بل إن هناك من القدرات فى النفس الإنسانية ما يمكنها من الإنصراف عن عادات أصيلة تحت تأثير الإيمان والتقوى دون أن يحدث ذلك أى ظلم أو رد فعل .

* * *

والواقع أننا لو التمسنا مفهوم الإسلام فى شأن العلاقة بين الأجيال لانهارت تحديات كثيرة ولكن مصدر الخطر والاضطراب هو التماس مفاهيم وافدة لمجتمعات أخرى دون تقدير الفوارق البعيدة والمعارضة فى تركيب الأمم وأمزجتها وأخلاقها والفوارق بين الأزمنة والعصور والبيئات .

* * *

— ١٤ —

الضيـاع

تضطرم كتابات الغربيين بكلمات الضياع والقلق ، بينما لا يقر الاسلام هذه المفاهيم فى جوهره الصحيح ، ان النظرة المادية هى التى أحدثت هذا الاضطراب النفسى الذى حرم النفس الانسانية من الثقة والايمان ، أما الفكر الاسلامى فهو يؤمن بثقافة القلب ، ممتزجة بثقافة العقل ، ومن هنا لا تقع أزمة الضياع ..

الضياع[1]

من المصطلحات التى طرحت على الفكر الإسلامى مفهوم (الضياع) على نحو العبارات التى يرددها بعض الشباب من عبارات ترجع فى الأصل إلى مصادر وافدة ، ذلك أن الأمة العربية الإسلامية إذا ما التمست مناهجها وقيمها فإنها لا تخضع له مثل هذه المذاهب والنظرية التى تتعارض مع طابعها وتشكلها الأساسى والجذرى وفطرتها الأصيلة ، وتراثها الحى الذى أقامه الإسلام على أساس التوحيد .

والإيمان والأخلاق والترابط الواضح بين العقل والقلب وهو ترابط مستمد من تركيب الإنسان نفسه فهو موافق له ، يحول دون التمزق أو الضياع الذى يكون مصدره فى الواقع ذلك الانفصال بينهما وإعلاء أحدهما ووضع الآخر بعيداً عن الضوء .

إن العامل الأول الذى يحول دون خضوعنا لمثل هذه المذاهب هو تكامل نظرتنا إلى الحياة وتلك الوسطية التى تتسم بها طبيعتنا

(١) مصطلح الضياع : مصطلح وجودى يراد به تصور فقدان الثقة فى المجتمع .

وسطية تحول دون الانحراف أو التجمد ، فنحن لا نتحيز لجانب العقل وعالم الشهادة وحدهما ولكننا نؤمن بالعقل والقلب أسلوباً للمعرفة ونقيم عالم الشهادة والغيب معاً متكاملين ونؤمن بالبعث والجزاء . ولذلك فنحن لا نسرف ونغرق فى فلسفات الحسيات والماديات والغرائز ولا نسرف كذلك ولا نغرق فى فلسفات الزهد وتعذيب النفس والرهبانية ومن هنا فإن فكرنا مطبوع دائماً بطابع السماحة والتفاؤل والتطلع إلى رحمة الله وهو ما يحول دون التمزق والضياع .

* * *

بينما يقوم التمزق والضياع فى بيئات قصرت مفهومها على النظرة المادية وحدها وأنكرت الإيمان بالله ، وعزلت المجتمع عن الالتزام الخلقى . ولقد أقام الفكر الإسلامى مستمداً من القرآن ميزاناً ظل حياً على مدى العصور لم يسقط أبداً ، ذلك هو ميزان التكامل والوسطية والحركة ، وذلك القسطاط الذى كان قادراً دائماً على تعديل مسار الفكر الإسلامى إذا اتجه نحو التجزئة أو الانحراف أو التوقف ، وقد كشف التاريخ فى موجاته المتصلة وحركاته المتوالية أن مصدر الخطر على المجتمع الإسلامى إنما يجىء من التخلف أو الانحراف

عن مفهوم الإسلام أو الانفصال عنه فى نظريته المتكاملة للكون والإنسان والمجتمع . وهى نظرة قوامها التوحيد ومنهجها العدل والحق وروحها الإيمان وطابعها الأخلاق فى نطاق من الوسطية الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة ، وهذا هو مفتاح « أزمة التمزق والضياع » التى فرضتها فلسفات الوجودية والفردية حين طرحت انفصال الدين عن المجتمع والأخلاق عن الحياة ، ولقد كانت أصالة فكرنا وعمق جذوره وذاتيته الخاصة ، كانت دائما عامل قوة وإيجابية قادرة على شجب تيارات التمزق والضياع .

إن أخطر مايلقى إلى الأجيال الجديدة من سموم الأفكار التى لاتصمد لحظة واحدة أمام ضياء الحق أو نور العلم ، تلك النظرية التى تقول بأن الأخلاق نسبية مع كل عصر أو بيئة .

* * *

وهى نظرية تهدف إلى القول بأن هذا العصر الذى طغت فيه المادية والحضارة التكنولوجية من شأنه أن يفهم « الأخلاق » فهما مغايراً لمفاهيمها التى جاءت بها رسالات السماء .

والحق أن الأخلاق ترتبط بالإنسان ، ذلك الكائن الحى الذى

يقوم تركيبه على الروح والجسم والعقل والذى لم تتغير هذه المواد فى تركيبه منذ استوى على هذه الأرض ، فالأخلاق مرتبطة به هو وليست مرتبطة بالصورة المادية للمجتمع .

ومن هنا كانت صياغة الأخلاق التى تحمى وجوده وتضبط مسيرته وتدفع عنه الأخطار وتحفظه بناءاً سليما قادراً على العمل والدفاع عن أرضه وصنع الحياة، كانت هذه الصياغة ملائمة تماما لتركيبه ونوازعه . وأبرز مفاهيم الأخلاق بالنسبة للإنسان [الالتزام الأخلاقى] وقد أخطأ بالعبد « دور كايم » حين أشاع نظرية مسموعة تقول : إن الأخلاق خاضعة لظروف الحياة وأن نظام الأسرة ليس نظاما فطريا ؛ هذه النظرية الخطيرة التى ارتبطت بالإيدلوجية اليهودية لتدمير الإنسانية (وجماعها : التفسير المادى للتاريخ والتفسير الجنسى للمجتمع والوجودية) .

* * *

هذه المحاولة لتجريد الأخلاق من فكرة الإلزام والواجب والضمير الخلق ، هى أخطر المحاولات التى صنعت فكرة الضياع والقلق والتمزق . والحق أن الأخلاق لاتوجد كقوة فاعلة فى المجتمع

دون فكرة الإلزام ، إيمانا بأن الإلزام هو العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور عليه قضية الأخلاق . والواضح أن زوال فكرة الإلزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف إليها الأخلاق ، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه وإقامة أسس العدالة .

ومفهوم الإلزام يقتضى أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت نفس المرء حفزته إلى العمل النافع . حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية فى النفس إلى قوة حسية .

ويكون الخير الأخلاقى بمثابة سلطة ملزمة يتقيدبها الجميع . وقد دعا القرآن إلى الإلزام الخلقى وكشف عن أن النفس البشرية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها[1] » .

وقد ألهمت النفس الإنسانية الحسن الخلق ، فعرفت طريق الفضيلة والرزيلة « وهديناه النجدين[2] » .

---

(١) سورة الشمس آيتا ٧ ، ٨ .
(٢) سورة البلد آية ١٠ .

وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر ولكن الإنسان قادر على أن يردها ويستعيد إرادته وسيطرته على قيادها . وفى النفس قوة كامنة مهيئة لتقبل التوجيه والنصح وهى تحدد للإنسان مايجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا هى أسمى جزء فى نفوسنا وهى « العقل » ، وسلطة العقل هى السلطة الشرعية الوحيدة . ولاشك أن أزمة الإنسان الغربى قد كانت موضع دراسة الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ، وهم بين جاد منصف يريد أن يلتمس لها حلا حقيقياً فى ضوء العلم والتجرد الخالص ، ومنهم من يستهدف وضع حلول من شأنها تدمير النفس الإنسانية وتمزيقها وقد علت هذه الأصوات الأخيرة بالرغم من زيف حلولها ومذاهبها لأن قوى الأيدلوجية الصهيونية وغيرها من القوى المناوئة للإسلام كانت من وراء نشرها والإلحاح عليها ، بينما اختفت سريعاً كل المحاولات الجادة ، ويرى هؤلاء المنصفون أن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد غير قادر على حل مشكلة الإحساس بالغربة أو التمزق والضياع فإن هناك إمكانيات أخرى فى الإنسان لا بد من استغلالها ، والإمكانيات تنحصر فى قدرة الإنسان على الاستفادة من قوى ثلاث : هى قوة الإرادة ، وقوة العقل ، وقوة العاطفة ، وأنه لا بد من إيجاد

الوحدة بين هذه القوى الثلاث باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي والتكامل النفسى ، وأن هذا الاضطراب القائم تحت أسماء الغربة والتمزق والضياع إنما نتج أساساً من ضعف العقيدة الدينية التى قلل من أثرها سيطرة التفكير العقلى الصرف فنحن بحاجة ماسة إلى إشباع هذه العاطفة الدينية إشباعاً نجد فيه الملاذ الذى نبحث عنه وأن غياب العقيدة الدينية والإيمان بالله الذى لا يغنى عنه شىء ، كان عاملا هاماً فى هذه الأزمة ولذلك فإن حاجة الإنسان إلى إشباع عاطفته الدينية أمر لا ينقطع[1] » .

* * *

ويرى كولن ولسن فى كتابه الغريب أن هذه الأزمة هى أزمة الإنسان الحساس العاقل الذى فقد إيمانه بالله ولم يجد بعد ما يسد حاجاته العاطفية التى كان الايمان مركز إشباعها ، وهى أزمة لعب العلم والتفكير العقلى فيها دوراً بالغ الأهمية أدى فى نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية ، وعنده أن أحد نتائج هذه الأزمه هى إشهار الإفلاس العقلى والتفكير العقلى . ودعا كولن ولسن إلى ضرورة

(١) دكتور مصطفى بدوى — مجلة كلية الآداب ١٩٥٨ .

تحقيق اتساق أو توازن بين قوى الانسان الثلاث : الجسم والعقل والعاطفة وذلك لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ ، ويرى كولن ولسن أن على الإنسان أن يتحرر من معتقدات وهمية كثيرة أهمها فكرة [الخطيئة الأولى] التي تسيطر على بعض الناس وتقف حائلا دون رؤية الحقيقة . ويصل كولن ولسن إلى أعماق الأزمة حين يشير إلى الآثار التي أفسدت العقلية الغربية والتي تمثل في آثار بعض الكتاب من أمثال جوته (الأم فارتر) وشيلر وسارتر وكامو وجيمس جويس وكل هذه الآراء تحاول أن تصور الحياة وقد انعدمت معانيها وقيمها وغاياتها مما أدخل على حياة الناس السأم والإنهاك والانشقاق على النفس بل أدى إلى مئات النزوات .

وفى قصة الغريب للبير كامى والغثيان لسارتر تبدو صورة مريرة تقوم على الرغبة فى إنكار كل قيمة للحياة وفى كل منهما ذلك الإحساس بالقلق والنفور والتصدع القائم بين الفرد والمجتمع ، وفى شعور الإنسان فجأة بأنه غريب وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن ومن هنا يأتيه الإحساس بالغثيان ، ويرى (كولن ولسن) ارتباط هذه الفلسفات بالآثار المسيحية الغربية ، وقد كان بعض أعلام الفكر الدينى يرى أن الشعور بالألم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل إلى

الايمان وإلى الوصول إلى ما يسمى بدوائر الايمان العليا وبمعنى آخر ينبغى للإنسان أن يمر بعذاب الضمير ، فإن عذاب الضمير الناجم عن الشعور بالخطيئة هو الذى يحقق ما يسمى بالوجود أمام الله .

* * *

ويرى كولن ولسن) أن هذه هى فلسفة كيركجارد أو من يطلق عليهم الوجوديون المؤمنون ، وهى ترتبط بفكرة الخطيئة ، أما نظرية سارتر وكامى فتصورها مسرحية (الله والشيطان) وأبرز معالمها نبذ العقائد الدينية ومحاولة القول بخطورتها فى تعويق تقدم الإنسان وتكبيل حريته . وأسوأ ما تصل إليه هى القول بأن « الموجود الوحيد فى العالم هو الإنسان مما زلزل إيمان الناس فى الغرب فى أقدس مقدساتهم ، وأن الفكر الدينى الغربى هو الذى أفسد فهم الناس لكثير من الحقائق ومن هنا كانت دعوة [كولن ولسن] إلى نبذ فكرة الخطيئة كأساس للتحرر من الغربة والغثيان ويشير « كولن ولسن » إلى أن أخطر ما أصيب به الفكر الأوربى هو تأليه العلم وتقديسه بل وتسخيره أحيانا فى إشعال الحروب وكان طبيعيا أن يؤدى هذا إلى خلق الشعور بالقلق المقيم الذى استبد بإنسان القرن العشرين حتى أصبح مرضا شائعا وطابعا يميز إنسان هذا العصر وقد صاحب

إحساس بعبث الحياة وانعدام الدافع والمسوغ لبذل الجهد والطموح فى عالم قد يباغته الدمار فى كل لحظة .

وهكذا تقف بعض الأقلام الواعية لتصور أزمة القلق والضياع والغربة فى الفكر الغربى ، وهي أزمة لاتستطيع أن تقتحم آفاق الفكر الإسلامى إلا بصعوبة بالغة ذلك لأن عواملها لاتتوافر هنا إلا من باب التقليد المحض ومن باب الغزو الثقافى .

فالإسلام بسماحته الفائقة وروحه البنّاءه المليئة بالتفاؤل والإيجابية البعيدة عن كل تعقيدات الاضطراب النفسى تحُول تماما دون وجود أزمة « الغريب » فى المجتمع الإسلامى .

وأن أخطر ماتقوم عليه هذه الأزمة وهو مفهوم التطور فى الأخلاق وإلغاء الالتزام الأخلاقى وهما من الأمور التى يتمسك بها الفكر الإسلامى ويعتبرها أساسا عميق الجذور فى بناء المجتمع .

ولعل هذا هو أعمق الفوارق بين الفكر الإسلامى وبين النظريات الفلسفية والمادية الزائفة التى تدعو إلى التطور المطلق والحرية المطلقة والتى تفسر العقل والقيم والتقدم على نحو مختلف عن الأصول التى يقوم عليها الفكر الإسلامى .

* * *

ولعل أبلغ تصوير لهذا المعنى مايقوله الدكتور إسماعيل الفاروقى فى مقارنته بين فكر العنصرية الصهيونى وبين فكر الحنيفية العربى الإسلامى» : إن القول بوحدانية القيم أمر تفرد به العرب ومن سواهم فوحدانية القيم هى نفسها وحدانية الله وهذه الوحدانية إدراك عربى طرأ على الوعي العربى (نتيجة الرسالات السماوية) مصطحبا جانبه الأخلاقى » .

« على حين أن غير العرب من الشعوب قد لبثت قرونا حتى بعد أن أخذ بالوجه الدينى من تلك الوحدانية قبل أن يدرك جانبها الخلقى وأعنى به وحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم :

« لب هذه الرسالة هى أن الله موجود وأنه واحد » .

« أما وجوده فمعناه عند العقل العربى وجود « القيم » وجوداً مستقلا عن الإنسان ووجوده ، أعنى أنها ليست من صنع الإنسان كما تقتضى ظروف عيشه .

« ومعناه كذلك عند العقل العربى أن حياة الإنسان على هذه الأرض لم تكن عبثا » .

«أما كون الله واحد، فمعناه عند العقل العربى. أن القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان».

« فالمعيار واحد بكل إنسان أى كان، وحيثما كان، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقى ومعيارها الذى تقيس به الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر، والحق حق بالنسبة للناس أجمعين».

« فالقول بوجود الله وبوحدانية الله إذن هو من صميم الاعتراف بموضوعية القيم وبتخليصها من قيود النسبية التى تقر اختلاف المعايير باختلاف الظروف».

« فالإنسان أمام الله، هو الإنسان لا اختلاف بين فرد وفرد إذا ما قيس الأفراد بمقياس الأخلاق الذى هو مقياس الحق[1]» اهـ.

* * *

وهذا القول بثبات الأخلاق هو حقيقة أعلنتها الأديان المنزلة

---

(١) كتاب فى مقارنات الأديان : الدكتور اسماعيل الفاروق.

جميعا وأكدها الإسلام فى وضوح وهى مصل مضاد لكل أخطار المفاهيم المسمومة المنحرفة التى تطرحها أيدلوجية الصهيونية العالمية لافساد النفس الإنسانية وتدميرها » .

ومن هنا يبدو فساد تلك النظرية التى طالما أثارها كتاب التغريب نقلا عن « دوركايم وسارتر وفرويد» والتى تربط الأخلاق بالوسط ، بينما ترتبط الأخلاق بالإنسان نفسه وبتركيبه العقلى والروحى والمادى . وأن أقوى العوامل فى تكوين الأخلاق هى «العقائد» التى تستطيع أن تحول النفس الإنسانية من النقيض إلى النقيض وأن القول بأثر البيئة أو الوراثة أمر يجىء فى الدرجة التالية ، ولكن العقائد وهى أقوى أثراً فى تحويل الطبائع وتحرير النفوس من آثار البيئات والوراثيات ، وليس الانسان ابن غرائزه كما يدعى أصحاب المذاهب الهدامة ، ولكن ابن عقيدته ، ابن الايمان وقد بدل الاسلام الناس وطبائعهم وغيرهم تغيراً جذريا على نحو يستطيع أن يكتشفه كل من يقرأ تاريخ الدعوة الاسلامية مما يؤكد

زيف هذه النظرية ، ويؤكد قدرة العقيدة الصحيحة ، على تغيير النفوس .

وقد آمن المسلمون بأن الالتزام الأخلاقى هو طابع كل القيم وقسيمها ومن هنا فإن المسلمين لم ينظروا إلى الأخلاق على أنها نشاط عقلى أو موضع جدال فكرى ، ذلك أن الاسلام جعل من الأخلاق منهجا علميا لاقرار قيم التوحيد والايمان والحق .

— ١٥ —

الفلكلور

هناك محاولات خطيرة مطروحة لضرب اللغة العربية وبلاغة القرآن وبيانه ، وأمام هذه المحاولات حركتين : هما حركة الأساطير وحركة الفلكلور ما هو الهدف الحقيقي من الدعوة الى الفلكلور في فكرنا الاسلامي وأدبنا العربي ·

الفلكلور

كانت الدعوة إلى إحياء التراث الشعبي (الفلكلور) فى السنوات الأخيرة تستمد وجودها من بعض أهداف ترمى إلى تغليب العامية والأزجال والأساطير والقصص الشعبية والأغانى والأمثال العامية على الأدب البليغ ، وإذابة الذوق العربى العام فى ألوان ضعيفة تقلل من قدر البيان العربى الذى يتصل أساساً بالعمل على إيجاد مستوى كاف لفهم القرآن الكريم والاقتراب من منهجه .

وقد كانت الدعوة إلى الفلكلور محاولة لا بأس بها لو أنها خلصت من هذا الغرض الخفى ، ولو أنها بقيت فى حدود حجمها الطبيعى بالنسبة للأدب الرفيع والفنون الممتازة ، أما أن تجرى المحاولات لإعلائها ودفعها حتى تكتسح مجال الأدب البليغ والأساليب العالية فإن ذلك هو الانحراف الذى يخشى أثره .

ومن هنا ارتفعت أصوات كثيرة تحذر من جناية الأدب الشعبي على الأدب العام من خلال مفاهيم منحرفة ، وهى التى تقول بأن الفلكلور يمثل روح الشعب وأنه وسيلة إلى التفاهم مع الطبقات الشعبية :

وربما رد بعضهم هذا اللون إلى المذهب الواقعى .

ومن الحق أن ذلك كله من المغالطات التى يراد بها النزول بأسلوب الكتابة ومستوى الفكر ومنهج العقلية إلى المستويات البسيطة الساذجة التى لا تستطيع أن تمثل ذوق الأمة ولا مزاجها ، هذه الأمة التى كانت أكبر مظاهر عظمتها ومعجزة دينها هى البيان .

* * *

والواقع أن هناك لوناً شعبياً فى الأدب له حدوده وله طابعه ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على الأدب العام ، الأدب العريق البليغ الذى يستمد وجوده من الوجود الإسلامى العربى الأصيل .

بل إن هذه الألوان من شأنها أن تهدم أعظم عناصر الأدب والفن وهو الجمال والأصالة .

لقد كانت الدعوة إلى الفلكلور ، واحدة من دعوات متعددة منها الدعوة إلى الميثولوجيا أو الأساطير ، وهما قد يختلفان مظهرا ولكنهما يتفقان غاية .

وقد شابت الدعوة إلى الفلكلور فى السنوات الأخيرة أهداف وغايات انحرفت بها عن هدفها العلمى ، فقد اتخذت وسيلة لإذاعة

العاميات وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العامية على نحو يراد به خلق تراث عام للعامية يمكن من خلاله الادعاء بالقول بأن العامية لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية ، وهذا ما جرت محاولة القول به ، وجمعه منذ أكثر من سبعين عاما وقد بدأ هذه المحاولة القاضى ولمور والمهندس ويا كولس وغيرها[1] .

* * *

لقد بدأت حركة الفلكلور كما بدأت حركة الأساطير على أيدى المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب ، الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية واللغة المحلية ، وألفوا فيها رسائل عديدة وجرى فى تيارهم بعض الكتاب ، وهى محاولة يجب أن تتبين أبعادها وخلفياتها التى تهدف إلى إقصاء اللغة الفصحى والبلاغة والبيان العربى عن الأسلوب العام وخلق أسلوب عامى ساذج ، والهدف الأصيل هو إقصاء لغة القرآن عن مكان الصدارة ، وتعزيز العاميات فى كل مصر وبلد مما يؤدى إلى تفكيك وحدة الأمة العربية وإبعادها عن جوهر فكرها ، بإنزالها عن مستوى بلاغة القرآن وآدابه ، كما عمدت

---

(١) راجع كتابنا : اللغة العربية بين حماتها وخصومها .

دعوتى الفلكلور والأساطير إلى استحياء الماضى الوثنى القديم البائد ، من وراء عصر الإسلام فهى قد ارتبطت بالفينيقية فى لبنان والفرعونية فى مصر ، والرومانية فى شمال أفريقا وكانت تحاول بذلك إحياء قيم ماتت وانتهت وتقاليد ومظاهر وأعياد جرفتها القيم الإسلامية وأنهت وجودها ولم تعد مرة أخرى إليها ، بعد أن جاءها الإسلام بالتوحيد الخالص .

- ١٦ -

مصطلح الضمير

هناك مصطلحات كثيرة ما تزال تتردد ، تستهدف اخراج الفكر الاسلامى من مقوماته وذاتيته وجوهره الأصيل، من هذه المصطلحات كلمة الزفانا وكلمة المهندس الأعظم ، وكلمات كثيرة ابرزها كلمة الضمير ، التى تتردد كثيرا دون أن نكتشف حقيقتها ومصطلح الضمير من التعبيرات التى استحدثتها كتب الأخلاق الغربية ، وهو مصطلح أريد به احلال مفهوم اخلاقى منفصل عن مفهوم الأديان المنزلة ، فحيث تدعو الاسلام الى بناء الانسان بالتقوى ويجعل منه قوة فعالة تحول بين الانسان وبين الشر فقد دعا كتاب الغرب الى ما يسمى بالضمير ، والضمير بهذا المفهوم لا يتشكل الا من خلال مفاهيم البيئة والثقافة والعقيدة ، فاذا تشكل على معنى التحرر من قيم الأخلاق أو اعتبارها نسبيه لا ترتبط بالانسان ولا بالمثل الثابتة فانما يجرى الضمير معها هذا المجرى وحينئذ لا يستطيع ذلك أن يحقق شيئا على النحو الذى يشكله مفهوم الضمير المرتبط بالأخلاق والعقيدة ، لذلك فان الرأى أن الضمير ينبنى تحت مفهوم ترابط الدين والخلق •

مصطلح الضمير

وفى هذا المعنى يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « لا نجد فى معاجم اللغة ذلك المعنى الأخلاقى الذى نفهمه من هذه الكلمة فى الوقت الحاضر ، وقد استعمله الغرب كثيراً وأشاد به حينما أراد أن يضع للأخلاق أساساً ومقياسا منفصلا عن الدين ، حين أراد الغرب أن يتخلص من سيطرة الكنيسة وأن يخرج عن سلطانها ، وكان الدين إذ ذاك أساساً ومقياسا للأخلاق ، فإذا أريد التخلص من الدين جرى البحث عن أساس ومقياس للأخلاق .

حاولوا أن يستعيضوا عن الدين بوحى الضمير وأن يتخذوا من وحى الضمير الأساس الذى لا يخطىء .

إن الناس فى كل العصور يستثيرون ضمائرهم ولكنها لا تسمعهم جميعاً لحنا واحداً . »

وعند ما نوازن بين أحوال الضمير فى العصر الواحد فى أقطار مختلفة فإننا نجد أيضاً فروقا لا تحصى .

ويختلف الضمير باختلاف الأزمنة أو اختلاف المبادىء أو اختلاف البيئة أو اختلاف الثقافات فى البيئة الواحدة .

ومن الشبه التى جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير أنه قد شاع بين بعض الطوائف أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها .

والضمير قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة وبيئة ووراثة وهى تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه وتنقله من بيئة إلى أخرى وبحسب الكتب التى تمده بالثقافة العقلية أو التهذيب الروحى وبحسب أخلاق الأصدقاء الذين يلازمهم الإنسان فى حياته .

ليس الضمير قوة فطرية معصومة بطبعها ، بل هو متأرجح متقلب لا يستقر له قرار .

إن « الأخلاق » هى المقياس الذى يلجأ إليه « الدين » ويستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه هو وحده المعصوم ، والإسلام قد أتى فى الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس المرهقة والأفئدة المتعطشة للاستقامة والإنابة .

أما صلة الدين بالضمير فهى صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة ، صلة هيمنة تستمر مدى الحياة فإذا زالت اختل الضمير .

خاتمة

إن الفكر الإسلامى لا يزال هو أقوى الحصون القادرة على المقاومة : وإن أكبر الأخطار التى تواجه العالم الإسلامى والأمة العربية إنما تجىء من الغزو الثقافى والتغريب والحرب النفسية .

وإن أخطر الأخطار التى تواجه الفكر والثقافة هو محاولة فرض مفاهيم وافدة على القيم ، كبديل للمفاهيم الأصيلة المستمدة من جوهر شخصيتنا ، والصادرة من عقائدنا ، والمنبعثة من مزاجنا النفسى وذاتيتنا ، هذه هى أخطر الحروب التى تحتاج إلى وضع كل المصطلحات والمفاهيم تحت ضوء الإسلام ، لكشف الزيف ولتصحيح الأخطاء ؟

أنور الجندى

الفهرس

كلمة الإشراف

عزيزى القارىء : لا نجد بدأ بين الفينة والفينة ، وكلما سنحت لنا الفرصة أن نعرض لك طرفا من بعض الموضوعات التى تدور حولها أحاديث الساعة مما يهم جماهير المسلمين وخاصتهم فى هذه الأيام ، مما يعالج مشاكل فكرية أو اجتماعية تشد اليها السادة القراء •

وكاتبنا فى هذا الشهر هو نفسه الذى قدم لنا من قبل كتابه القيم « قضايا العصر فى ضوء الاسلام » ، والذى لاقى اقبالا كبيرا من قرائنا الأعزاء •

واتماما للرسالة يقدم لنا اليوم كتابه الماثل بين يديك « مشاكل الفكر فى ضوء الاسلام » باذلا جهدا مشكورا لتسليط أكبر قدر من أضواء الاسلام الباهرة على تلك المشاكل التى تعرض لها •

ونرجو دائما أن نكون قد قدمنا لك ماتصبو اليه وتأمل فى سلسلتك المحبوبة ، سلسلة البحوث الاسلامية التى ما فتئت تختار لك كل شيق ونافع فى تدعيم الدعوة الاسلامية ورفع راية الحق والعلم والايمان ؟

طلعت غنام

مطابع
الشركة المصرية للطباعة والنشر
بالقاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٣١٧٠